# الرافعى العاشق

الحب عند الرافعى . هو وهي . شعر وفلسفة ، وحب وكبرياء . هى وهو ـ تعقيب . رسائل الأحزان . السحاب الأحمر . أوراق الورد .

---

١ — « إن المرأة للشاعر كحواء الآدم . هى وحدها تعطيه بحبها جديداً لم يكن فيه ؛ وكل شعرها أنها تتخطى به السماوات نازلا ... »

٢ — « إن النابغة فى الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق ... »

٣ — « ... إن ملكة الفلسفة فى الشاعر من ملكة الحب ؛ وإنما أولها وأصلها دخول المرأة فى عالم الكلام بابهامها وتثنيتها ... » ( الرافعى )

---

أترانى أستطيع الحديث عن الرافعى العاشق فاوفّى القول وأبلغ الغاية ... ؟

وهل يكون لى أن أدعى أننى أكتب فى هذه الصفحات تاريخ الرافعى إذا أنا لم أعرض لحديث الرافعى العاشق ... ؟

وهل خَلتْ فترة فى حياة الرافعى من الحب ؟

ذلك الرجل الذى لا يتخيله أكثر من لم يره إلا شيخاً معتجر العمامة مطلق العذبة مسترسل اللحية مما قرءوا له من بحوث فى الدين وآراء فى التصوف وحرص على تراث السلف وفطنة فى فهم القرآن مما لا يدركه إلا الشيوخ ، بل مما لا يدركه الشيوخ ...

هذا الذى يكتب إعجاز القرآن ، وأسرار الإعجاز ، والبلاغة النبوية ، ويصف عصر النبوة ومجالس الأئمة وكأنه يعيش فى زمانهم وينقل من حديثهم ...

هذا الذى كانت تتصل روحه فيما يكتب — من وراء القرون — بروح الغزالى ، والحسن البصرى ، وسعيد ابن المسيّب ؛ فما تشك فى أن كلامه من كلامهم وحديثه من إلهام أنفسهم ..

هـذا الذى تقرأ له فتحسبه رجلاً من التاريخ قد فر من ماضيه البعيد وطوى الزمان القهقرى ليعيش فى هذا العصر ويصل حياة جديدة بحياة كان يحياها منذ ألف سنة أو يزيد فى عصر بعيد ...

... هذا الرجل ، كان عاشقا غلبه الحب على نفسه وما غلبه على دينه وخلقه ..!

إن الحديث عن حب الرافعى لحديث طويل ؛ فما هى حادثة أرويها وأفرغ منها ، وحبيبةٌ واحدة أصفها وأتحدث عنها ؛ ولـكنها حوادث وحبيبات ، وعمر طويل بين العشرين والسابعة والخمسين ، لم يشرق فيه صباح ولم يجنّ مساء إلا وللرافعى جديدٌ فى الحب ؛ بين غضب ورضا ، ووصل وهجر ، وسلام خصام ، وعتب ودلال ، وحبيب إلى وداع وحبيب إلى لقاء ... وشابَ الرافعى وما شاب قلبه ، وظل وهو يدب إلى الستين كأنه شابٌّ فى العشرين ... ومات وعلى مكتبه رسالة وداد من صديقة بينها وبينه جواز سفر وباخرة وقطار ، وكان فى الرسالة موعد إلى لقاء ..!

* * *

قلت مرة للأستاذ الزيات صاحب ( الرسالة ) وبين الرافعى وأجله عام : هل لك فى موضوع طريف عن الرافعى أنشره لقراء الرسالة ؟ إن للرافعى فى الحب لحديثاً يلذ ويفيد ...

قال : ومن لى بهذا ؟

قلت : أنا لك .

قال : ولـكنه حديث يُغضب الرافعى !

قلت : وعلىّ أنا أن يرضى ...

وذهبت إلى الرافعى فأفضيت إليه بعزمى . قال : أو تفعلها ؟ أفـكان لهذا مجلسُـك منى كل مساء تسترق السرّ لتدخره إلى يوم تنشره فيه على الناس بثمن ..؟

قلت : لو أنه كان سراً لم يعلمه غيرى ما عقدت العزم على شىء ، ولـكنك ياسيدى ...

وما كان للرافعى سر يستطيع أن يطويه بين جوانحه يوماً وبعض يوم ، فكأنما

أذكرته ما كان ناسياً ؛ فعاد يقول : وماذا تريد أن تقول فى حديثك عن حبى ؟

قلت : حديثاً لو همّ غيرى أن يجعل منه مقالاً لقرائه لما كان الرافعى هو الرافعى عند من يقرؤه ، ولكن أحسبنى أنا وحدى الذى يستطيع أن يقول إن الرافعى كان يحب فما يغير شيئاً من صورة الرافعى كما هو فى نفسه وكما هو عند من يعرفه . إننى أنا وحدى الذى يعرف الحادثة وجوّها وملابساتها وما كان فى نفسك منها ؛ ولعلى يوم عرفتُ كنت أسمع نبضات قلبك وخلجات وجدانك ومرمى أملك وما كانت غايتك فى الحب ومداك . أما غيرى فهل تراه يعرف إلا الحادثة ؟ وحسبه أن يقول : إن الرافعى يحب ... ثم تكون الفضيحة التى تخشاها وأنت منها طاهر الإزار ...

واستمع الرافعى إلى حديثى ثم أطرق هنيّة وعاد يسألنى : وهل أقرأ ما تُعِدّه قبل أن تنشره .

قلت : لك ما تريد .

قال : أنت وشأنك !

* * *

وأجمعت أمرى ، وأعددت فكرى ، وتهيأت للكتابة ، ثم شغلتنى العناية بطبع ( وحى القلم ) وتصحيح تجاربه عن الوفاء بما وعدت ... ومات الرافعى !

فإن يكن فى الحديث عن ( الرافعى العاشق ) حرج فلا علىّ ؛ فقد استأذنته فأذن ، وما أكتب الآن إلا مستمداً من روحه ، راوياً من بيانه ؛ ولدىّ شهودى من كتبه ورسائله ، وما يعرفه أصدقاؤه وصفوته . وإذا كان الرافعى قد خفت صوته إلى الأبد فلا سبيل إلى أن أسمع رأيه فيما أكتب عن تاريخ قلبه ، فإنى لمؤمن شديد الإيمان بأننى ما أزال فى رضاه ومنزلتى عنده وإن كان بيننا هذا البرزخ الذى لا أعرف متى أجتازه إليه فأسمع من حديثه ويسمع من حديثى !

# الحب عند الرافعى

وهل فى الحب عار أو مذمة ؟

هذا سؤال يجب أن يكون جوابه إلى جانبه قبل أن أمضى فى هذا الحديث ...

أما الحب الذى أعنيه — وكان يعنيه الرافعى — فشىء غير الحب الذى يدل عليه مدلول هذه الكلمة عند أبناء هذا الجيل ...

إن الحب عند الناس هو حيلة الحياة لإيجاد النوع ، ولكنه عند الرافعى هو حيلة النفس إلى السموّ والإشراق والوصول إلى الشاطئ المجهول ، هو نافذة تطل منها البشرية إلى غاياتها العليا ، وأهدافها البعيدة ، وآمالها فى الإنسانية السامية ؛ هو مفتاح الروح إلى عالم غير منظور تتنوّر فيه الأفقَ المنيرَ فى جانب من النفس الإنسانية، هو نُبوَّة على قدر أنبيائها : فيها الوحى والإلهام ، وفيها الإسراء إلى الملأ الأعلى على جناحَى ملك جميل ... هو مادة الشعر وجلاء الخاطر وصقال النفس وينبوع الرحمة وأداة البيان .

كذلك كان الحب عند الرافعى ، ولذلك كان يحب ... وسعى إلى الحب أول ما سعى على رجليه ، منطلقاً بإرادته ليبحث فى الحب عن ينبوع الشعر ، فلما بلغ أغلق الباب من دونه فظل يرسف فى أغلاله سنين لا يستطيع الفكاك من أسر الحب.

وكانت (عصفورة) أول من فتح لها قلبه فسيطرت عليه وغلبته على نفسه ، وهى فتاة من (كفر الزيات) لقيها ذات يوم على الجسر ، وسنه يومئذ إحدى وعشرون سنة؛ فهفا إليها قلبه ، وتحرك لها خاطره . وكان للرافعى فى صدر شبابه على (جسر كفر الزيات) مَغْدًى ومراح ، ومن عيون الملاح على هذا الجسر تفتحت زهرة شبابه للحب ، وجاشت نفسه بمعانى الشعر .

ومن وحى هذا الحب كان أكثر قصائد الرافعى الغزلية فى الجزء الأول من الديوان ، ومنه كان ولوعه فى صدر أيامه بلقب شاعر الحسن !

وبلغ الرافعى بعصفورة إلى غايته ، واشتهر ( شاعرُ الحسن ) وترنم العشّاقُ بشعره وما بلغت عصفورة إلى غايتها . ثم مضى كل منهما إلى طريق ، وأتمّ الرافعى طبع ديوانه . . . وكما ينتهى الحب الذى هو حيلة الحياة لإيجاد النوع إلى الزواج أو إلى الغاية الأخرى ثم يبدأ فى تاريخ جديد — كذلك انتهى حب الرافعى وعصفورة وأنجب ثمرته الشعرية فى الجزء الأول من الديوان ، ثم كان تاريخ جديد ...

وعلى مثال هذا الحب كم كانت له حبيبات وكم أنجبن من ثمرات ؛ وإنه ليخيل إلىّ أن الرافعى كان كلما أحسّ حاجةً إلى الحب راح يفتش عن ( واحدة ) يقول لها : تعالى نتحابّ لأن فى نفسى شعراً أريد أن أنظمه ، أو رسالة فى الحب أريد أن أكتبها ... ! ولقد سمعته مرة يقولها لإحداهن ... وسمعت إحداهن مرة تقول له : متى أرانى فى مجلسك مرة لتكتب عنى رسالة فى « ورقة ورد » ؟

على أن الرافعى كان له إحساس عجيب فى مجالس النساء، وكان لهن عليه سلطان وله سحر وفتنة . وهو فى هذه المجالس فكه مداعب رائق النكتة لا تملك السيدة الرَّزَانُ فى مجلسه إلا أن تخرج عن وقارها ؛ وكانت هذه أداته فى استمالتهن حين يلتمس الوحى أو يجد الحاجة إلى أن يقرأ شعراً فى عينٍ ساحرة ، فإذا استوى له ما أراد عاد إلى مكتبه لينشئ وينظم وتنتهى قصة حب

وكان يسمى كل جميلة ( شاعرة ) لأنها تمنحه الشعر ، و ( الشواعر ) عنده طبقات ، على مقدار ما يمنحن فيه من الشاعرية ويرهفن من إحساسه ؛ ففلانة شاعرة كالمتنبى ، وهذه كالبحترى وتلك بنت الرومى ، ورابعة بشار بن برد ، وخامسة عبد الله عفيف أو شاعر الرعاع .

وحين يجلس فى الشرفة من قهوة (لنوس) بطنطا وتمر به الجميلات فى رياضتهن أو فى حاجتهن ، تسمع ثبتاً حافلاً بأسماء الشعراء يبدأ من مهلهل بن ربيعة وينتهى بفلان الذى يؤمل أن يكون أمير الشعراء بعد أن يموت كل الشعراء ... !

هذه لمحات أذكرها على غير صلتها بالموضوع لأنها تشير إلى بعض عناصره ؛

على أننى وقد بلغت هذا القدر من الحديث لم أبدأ القول بعدُ عن حب الرافعى الذى أنشأت هذا الفصل للحديث عنه .

إنها حادثة وقعت فى تاريخ الرافعى وسنه ثلاث وأربعون سنة فأنشأته خلقاً جديداً ، كانت دعابة من مثل ما قدَّمت فأوشكت أن تكون علة ، فلما اختاره الله له أنقذه بكبريائه من دائه ، ولكنه خلّف فى قلبه جرحاً يَدمَى ، ولكنها كانت بركة فى الأدب وثروة فى العربية .

من تكون هذه الشاعرة التى غلبته على إرادته فغلبها بكبريائه ؟ ما شأنها وما خبرها ؟ ... ... ...

# هو وهى ... ؟!

— « لقد وضعك حسنك فى طريق موضع البدر : يرى ويحب ولا تناله يد ولا تعلق بنوره ظلمة نفس ، لـكن كبرياءك نصبتك نصبة الجبل الشامخ : كأنه ما خلق ذلك الخلق المتثر الوعر إلا لتـدق به قلوب المصعدين فيه ... كونى من شئت أو ما شئت ، خلقاً مما يكبر فى صدرك أو مما يكبر فى صدرى ؛ كونى ثلاثا من النساء كما قلت أو ثلاثة من الملائـكة ، ولـكن لا تكونى ثلاثة آلام . انفحى نفح العطر الذى يلمس بالروح ، واظهرى مظهر الضوء الذى يلمس بالعين ، ولـكن دعينى فى جوك وفى نورك . اصعدى إلى سمائك العالية ، ولـكن ألبسينى قبل ذلك جناحين . كونى ما أرادت نفسك ، ولـكن أشعرى نفسك هذه أنى إنسان ... ! »

(هو)

— « إن أمى ولدت نفسى ونفسى هى ولدتنى ، فلا ترج أن تصيب فى طباع أنثى وإلا ضل ضلالك أيها الحبيب ... »

(هى)

« رجل وامرأة كأنما كانا ذرتين متجاورتين فى طينة الخلق الأزلية وخرجتا من يد الله معاً ؛ هى بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته ...

« كانا فى الحب جزءين من تاريخ واحد ، نشر منه ما نشر وطوى منه ماطواه ؛ على أنها كانت له فيما أرى كملك الوحى للأنبياء ، ورأى فى وجهها من النور والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين فلك المعانى السامية كمرآة المرصد السماوى ؛ فكل ما فى رسائله من البيان والإشراق هو نفسها ، وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه[1] »

* * *

لم تكن (هى) أولى حبائبه ولـكنها آخر من أحب ؛ عرفها وقد تخطى الشباب وخلّف وراءه أربعين سنة ونيفاً حافلة بأيام الهناءة ، مشرقة بذكريات

(١) رسائل الأحزان

الهوى والصبابة والأحلام ، وكان بينهما فى السن عُمرُ غلام يخطو إلى الشباب ...

سعى إلى مجلسها يوم (الثلاثاء) سعْىَ الخلى إلى اللهو والغزل ، يلتمس فى مجلسها مادة الشعر ، وجلاء الخاطر ، وصقال النفس ؛ ومجلسها فى كل (ثلاثاء) هو ندوة الأدب ومجمع الشعراء ؛ وجلس إليها ساعة ، وتحدثت إليه ، وكان كل شىء منها ومما حولها يتحدث فى نفسه . ولسه الحبُّ لمسة ساحر جعلت فى لسانه حديثاً ولعينيه حديثاً . وطال انفرادها به عن ضيوفها ؛ فما تركته إلا لتعتذر إليهم فتعود إليه ... وقامت تودعه إلى الباب وهى تقول : « متى تكون الزيارة الثانية ؟ » . فنهى النفس عن الهوى ونسأ الأجل إلى غد ... ... !

ووقع من نفسها كما وقعت من نفسه ، فما افترقا من بعدها إلا على ميعاد ؛ ومحت صورتها من ماضيه كل ما كان فى أيامه وكل من عرف ، لتملأ هى نفسه روعتها ودلالها وسحرها ؛ وانتزعها هو من أيامها فما بقى لها من أصحابها وصواحبها غير مُصَيْفٍ[1] مشغلةً فى الليل والنهار .

وكان الرافعى أول من يغشى مجلسها يوم الثلاثاء وآخر من ينصرف ، فإن منعه شىء عن شهود مجلسها فى القاهرة كتب إليها من طنطا وكتبتْ إليه ، على أن يكون له عوض مما فاته يومٌ وحده ...

كان يحبها حبًّا عنيفاً جارفاً لا يقف فى سبيله شىء ، ولكنه حب ليس من حب الناس ، حب فوق الشهوات وفوق الغايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية . لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح ، وقد وجدها ، ولكن فى نفسه لا فى لسانه وقلمه ، وأحس وشَعَر وتنوَّرت نفسُه الآفاق البعيدة ، ولكن ليثور بكل ذلك دمُه ، وتصطرع عواطفه ولا يجد البيان الذى يصف نفسَه ويُبين عن خواطره ...

---

(١) يزعم الرافعى أن (مصيف) هو تصغير (مصطفى) على قاعدة الترخيم . وصوابه مُصَيْطِف (بضم ففتح فتضعيف) والرافعى على علمه بخطأ هذا التصغير كان حريصا على استعماله لأنها هى وضعته وكانت تتحبب به إليه ... فلا كان سيبويه وأبو على وابن جنى إن رضيت هى !

بلى . قد كتب ونظم وكان من إلهام الحب شعرُه وبيانه ، ولكنه منذ ذاق الحب أيقن أنه عاجز عن أن يقول فى الحب شعراً وكتابه ، ومات وهو يدندن بقصيدة لم ينظمها ولم يسمع منها أحد بيتاً ، لأن لغة البشر أضيق من أن تتسع لمعانيها أو تعبر عنها ، لأنها من خفقات القلب وهمسات الوجدان .

و ( هى ) أديبة فيلسوفة شاعرة ؛ فمن ذلك كان حبها وكان حبه « من خصائصها أنها لا تعجب بشىء إعجابها بدقة التعبير الشعرى ... إنها تريد أن تجمع إلى صفاء وجهها وإشراق خديها وخلابتها وسحرها ، صفاءَ اللفظ وإشراق المعنى وحسن المعرض وجمال العبارة ، وهذا هو الحب عندها ... »

« ... ولا يستخرج عجبها شىء كما يعجبها الكلام المفنن المشرق المضىء بروح الشعر ؛ فهو حلاها وجواهرها ؛ وما لسوق حبها من دنانير غيرُ المعانى الذهبية ؛ فإنها لا تبايعك صفقة يد بيد ، ولكن خفقة قلب على قلب »(١)

* * *

وكذلك تحابّا ؛ وتراءيا قلباً لقلب ، وتكاشفا نفساً لنفس ، ومضى الحب على سنته . ونظر الرافعى إليها وإلى نفسه وراح يحلم ، وخيل إليه أنه يمكن أن يكون أسعد مما هو لو أنها ... لو أنها كانت زوجته ... ثم عاد إلى نفسه يؤامرها فأطرق من حياء ... وكانت خطرة عابرة من خطرات الهوى أطافت به لحظة وما عادت . وقالت له نفسه وقال لنفسه ، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها من قبل بعينى العاشق ، وأوشكت القصة أن تبلغ نهايتها وتنحل العقدة ، فجاءت كبرياؤه لتخط الخاتمة ...

وراح الرافعى يوماً إلى ميعاده ، وكان فى مجلسها شاعر جلست إليه تحدثه ويحدثها ؛ ودخل الرافعى فوقفت له حتى جلس ، ثم عادت إلى شاعرها لتتم حديثاً بدأته ، وجلس الرافعى مستريباً ينظر ؛ وأبطأت به الوحدة ، وثقل عليه أن تكون لغيره أحوجَ ما يكون إليها ، ونظر إلى نفسه وإلى صاحبه ، وقالت له نفسه :

---

(١) رسائل الأحزان

« ما أنت هنا وهى لا توليك من عنايتها بعض ما تولى الضيف ... ؟ » فاحمر وجهه وغلى دمه ، ورمى إليها نظرة أو نظرتين ، ثم وقف واتخذ طريقه إلى الباب ... واستمهلته فما تلبث ، وكتب إليها كتاب القطيعة ... !

وعاد إليه البريد برسالتها تعتذر وتعتب وتجدد الحب فى أسطر ثلاثة ، ولكن الرافعى حين وجد كبرياءه نسى حبه ، وكان هو الفراق الأخير ... !

كان ذلك فى سنة ١٩٢٣

وثابت إليه نفسه رويداً رويداً ، وخلا إلى خواطره وأشجانه ليكتب رسائل الأحزان !

ومضت ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة ، لم يلتقيا وجهاً لوجه ، إلا مرة ، فى حفل أدبى فى طنطا ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها ، ثم فر أحدهما من الميدان وخلف الآخر ينتظر ...

على أن الرافعى لم ينس صاحبته قط ، وعاش ما عاش بعد ذلك وما تبرح خاطره لحظة ، وما يأنس إلى صديق حتى يتحدث إليه فيما كان بينه وبين ( فلانة ) ، ثم يطرق هنيهة ليرفع رأسه بعدها وهو يقول : « هل يعود ذلك الماضى ؟ إنها حماقتى وكبريائى ، ليتنى لم أفعل ، ليت ... ! » . ثم ينصرف عن محدثه إلى ذكرياته ، ويطول الصمت ...

وكان لا ينفك يسأل عنها من يعرف خبرها ، حتى عرف أنها سافرت إلى الشام تستشفى منذ عام فأقامت هناك ، فهفت إليها نفسه وتحركت عاطفته إليها فى لون من الحب وغير قليل من الندم ؛ فكتب إلى صديقة فى ( دمشق ) لتزورها فى مستشفاها وتكتب إليه بخبرها ؛ فكتبت إليه[1] :

« ... ... بالصدق يا صديق أننى كلما استعدت بذاكرتى وصية ( فلانة ) المؤلمة ونتيجتها المحزنة ، اعترتنى حالة انقباض شديد وحزن لا حد له ... إن الموت

---

(١) جاءه هذا الكتاب قبل موته ببضعة وعشرين يوماً ، وأحسبه آخر ما جاءه من أنباء صاحبته !

فى مثل هذه الحالات يعد كنزاً ثميناً لا يحصل عليه إلا السعيد . وإنى أتهمك قانوناً ... بأنك كنت السبب فيما نابها ، فماذا عليك لو لبيت الدعوة ؟ آه ، لقد كنت قاسياً وفى منتهى القسوة ، فهل كان يحلو لك تعذيبها بهذا الشكل ، وإلا فماذا تقصد من هذه القطيعة ؟ إن المرأة على حق حين تظن ، لا ، بل حين تعتقد أن الرجل ... لا ، السكوت أولى الآن ... »

أما هذه (الوصية) التى أوصت بها ( فلانة ) زائرَتَها لتبلغها إلى الرافعى ، فلست أعرف ما هى ؛ فقد قصّ الرافعى هذا الجزء من الخطاب قبل أن يصل إلىّ ، ولست أعرف أين خبأه من مكتبه ، ولعل ولده الدكتور محمد يدرى ، فإن كان ، فإن عليه حقاً للأدب أن يحتفظ بما عنده من الرسائل إلى أوانها ، فسيأتى يوم تكون فيه هذه الرسائل شيئاً له قيمته فى البحث الأدبى .

* * *

قلت : إن الرافعى قطع ما بينه وبين صاحبته منذ ثلاث عشرة سنة لم يلتقيا إلا مرة ، ولكنه كان يكتب لها وتكتب له رسائلَ لا يحملها ساعى البريد ، لأنه كان ينشرها وتنشرها فى ثنايا ما تنشر لهما الصحف من رسائل أدبية ، يقرؤها قراؤها فلا يجدونها إلا كلاماً من الكلام فى موضعها من الحديث أو المقالة أو القصة ، ويقرؤها المرسل إليه خاصة فيفهم ما تعنيه وما تشير إليه ، ثم يكون الرد كذلك : حشواً من فضول القول فى حديث أو مقالة أو قصة . هى رسائل خاصة ولكنها على أعين القراء جميعاً وما ذاع السر ولا انكشف الضمير ، وفى أكثر من مرة والرافعى يملى علىّ مقالاته — كان يستمهلنى قليلاً ليُعَيِّث فى درج مكتبه قليلاً فيخرج ورقة أو قصاصة يملى علىّ منها كلاماً ، ثم يعود إلى إملائه من فكره ، وأعرف ما يعنيه فأبتسم ويبتسم ، ثم نعود إلى ما كنا فيه ؛ وتنشر المقالة ، فلا نلبث أن نجد الرد فى رسالة تكتبها ( فلانة ) فيتلقاها الرافعى فى صحيفتها كما يفض العاشق رسالة جاءته فى غلافها مع ساعى البريد من حبيب ناء ...

هى طريقة لم يتفاهما عليها ولكنهما رضياها ، وأحسب ذلك نوعاً من الكبرياء

التي ربطتهما قلباً إلى قلب ، والتي فرقت بينهما على وقدة الحب وحرقة الوجد والحنين !

* * *

وكنت مع الرافعي مرة بالقاهرة في شتاء سنة ١٩٣٥ ، فقال لي : « مِلْ بنا إلى هذا الشارع ! » ، ولم تكن لنا في ذلك الشارع حاجة ولكني أطعته ، وانتهينا إلى مكان ، فوقف الرافعي معتمداً على عصاه ، ورفع رأسه إلى فوق وهو يقول : « إنها هنا ، هذه دارها ، من يدري ، لعلها الآن خلف هذه النافذة ... ! »

قلت : « مَنْ ؟ » قال : « فلانة ! »

قلت : « ولكن النوافذ مغلقة جميعاً ولا بصيص من نور ؛ فأين تكون ؟ »

قال : « لعلها الآن في السينما . إذا كان الصباح فاغْدُ علي مبكراً لنزورها معاً ، إن بي حنيناً إلى الماضي . . . ليتني . . . ولكن أترى من اللائق أن أزورها بعد كل ما كان ؟ »

قلت : « وما يمنع ؟ أحسبها ستسرّ كثيراً بلقياك ... ! »

قال : « إذن في الصباح ، ستكون معي ، ولكن احذر ، احذر أن تغلبك على قلبك ... أو أن تسمح لخيالك أن يسبح وراء عينيك ... إنها فاتنة ! »

قلت : « لا ، إنها عجوز ، فما حاجتي بها ..؟ » وضحكت مازحاً .

فزوى ما بين عينيه وهو يقول : « وَيْ ! عجوز ! إنها أوفر شباباً منك ! »

قلت : « قد يكون ذلك لو أن السن قد وقفت بها منذ اثنتي عشرة سنة ..! »

قال : « صدقت ...! اثنتي عشرة سنة ... ! »

وسكتَ وسكتّ حتى أوصلته إلى الدار ، فلما كان الصباح غدوتُ عليه فأذكرته موعده ، فابتسم ابتسامة هادئة وهو يقول : «يا بنيّ ، إنها ليست هناك ، إن (تلك) قد ذهبت منذ اثنتي عشرة سنة ، أما ( هذه ) فأظنني لا أعرفها ... إنني أحرص على الماضي الجميل أن تتغير صورته في نفسي ... بحسبي أنها في نفسي ..! »

ثم لم يلبث بعد ذلك أن جاءه النبأ أنها سافرت إلى الشام لعلة في أعصابها ... !

# شعر وفلسفة ، وحب وكبرياء

١ — « إن فى الرجل شيئا ينفذ المرأة منه وإن هلك بحبها ، وإن هدمت عيناها من حافاته وجوانبه : فيه الرجولة إذا كان شهما ، وفيه الضمير إذا كان شريفا ، وفيه الدم إذا كان كريما . فوالذي نفسى بيده ، لا تعوذ المرأة بشئ من ذلك ساعة تجن عواطفه ، وينفر طائر حلمه من صدره ، إلا عاذت — والله — بمعاذ يحميها ويعصمها ويمد على طهارتها جناح ملك من الملائكة »

٢ — « . . . ويسرف على بغضها أحيانا فأتلهب عليها فى زفرات كمعمعة الحريق حين ينطبق مثل الفلك من جهنم على مدينة قائمة فيمضغ جدرانها مضغ الخبز اليابس ؛ ثم يسرف على حبها أحيانا فينحط قلبي فى مثل غمرات الموت وسكراته يتطوح من غمرة إلى غمرة ؛ فأنا بين نقمة تفجأ ، وبين عافية تتحول ، وكأنه لا عمل لى إلا أن أصعد مئة درجة لأهبط مئة درجة . . . ؟ »

٣ — « لقيتها وما أريد الهوى ولا تعمده قلبي ، ولا أحسب أن فيها أموراً ستئول مآلها ؛ وكنت أظن أن المستحيل قسمان : ما يستحيل وقوعه فلا تفضى إليه ، وما يمكن وقوعه فتهمله فلا يفضى إليك ، ولكن حين توجد المعجزة تبطل الحيلة ؛ ومتى استطردك القدر الذى لا مفر منه ، أقبل بك على ما كنت منه تفر »

٤ — « . . . إنها لأبلغ ذات لسان ، وأبرع ذات فكر ، وأروع ذات نفس ؛ ولو كنا سليلى أبوة ما شهدت لها بأكثر من هذا حرفا ، ولو كان دمى من أعدائها ما نقصتها من هذا حرفا ، وعلم الله ما أبغض فيها إلا هذه التى أشهد لها . . . ! »

٥ — « . . . دعنى أقول لك : إنى أبغض من أحبها . . . وإن هذا البغض وجه آخر من الحب ، كالجرح : ظاهره له ألم وباطنه له ألم ! »

٦ — « . . . وكما ينشأ الكفر أحيانا من عمل العقل الانسانى إذا هو تحكم فى الدين ، يأتى البغض من هذا العقل بعينه إذا هو تحكم فى الحب ! » ( الرافعى )

أترى صوتى يبلغ إليها حيث تقيم بالشام شاردة الخيال مستطارة القلب ؟

أم ترى صوتى يبلغ إليه تحت أطباق الثرى وبيننا هذا القدْر من عمر الزمان كأنه من البعد وانفساح المدى سنوات وسنوات ؟

إنه ليخيَّل إليّ أن هذا الحديث الذى أكتبه عنها وعنه هو رسالة من الغيب إلى هذه الحبيبة الواجدة المحزونة ، من الحبيب الذى أحبها أعنف الحب وأرقه وما تراءى لها مع ذلك فى عمره الطويل إلا الرجل القاسىَ الذى حطم قلبها بقسوته وكبريائه ، ومات وما تلقت رسالته الأخيرة فنفذتْ روُحه من أقطار السموات لتمليها علىّ وفيها المعذرة والاستغفار ...

آه لو تدرين كم كان يحبك أيتها الحبيبة ! ... فهل كنت ... ؟ ولكن ... ولكن لا سبيل إلى ما فات ... !

* * *

لقد أحبها جهد الحب ومداه ، حباً أضل نفسه وشرّد فكره وسلبه القرار ؛ ولكنه حب عجيب ، ليس فيه حنين الدم إلى الدم ، ولكن حنين الحكمة إلى الحكمة ، وهفوة الشعر إلى الشعر ، وخلوة الروح إلى الروح فى مناجاة طويلة كأنها تسبيح وعبادة ، وأسرف عليه هذا الحب حتى عاد فى غمراته خلقاً بلا إرادة ، فليس له من دنياه إلا هى ، وليس له من نفسه إلا ما تهب له من نفسه !

والرافعى رجل — كان — له ذات وكبرياء ؛ فأين يجد من هذا الحب ذاته وكبرياءه ؟ هكذا سألته نفسه !

* * *

وأحبها أديبة فيلسوفة شاعرة تستطيع أن ترتفع إلى سمائه وتحلق فى واديه ، وله مثل قدرتها على الطيران والتحليق فى آفاق الشعر والحكمة والخيال ، فما التقيا مرة حتى كان حديثهما فنوناً من الشعر وشذرات من الفلسفة وقليلاً من لغة العشاق فى همس من لغة العيون ... وقال لها مرة : « إن الحب يا عزيزتى ... »

قالت : « إن فلسفة الحب ... »

قال : « بل أعنى حقيقة الحب ومعناه ... »

قالت : « دع عنك يا حبيبى ... إن أحلام الحب هى شىء غير الحب ، أفأنت تريد ... ؟ »

فاختلجت شفتاه وأطرق ، وراح يسأل نفسه : « ما الحب وما فلسفة الحب ؟ يا ضيعة المنى إن كان الحب شيئاً غير الذى فى نفسى ! »

وتحدث ضميره فى ضميرها فابتسمت وهى تقول : « أنا ما أحببتك رجلاً بل فكراً وروحاً ونفساً شاعرة ، وأنت بكل ذلك ملء نفسى وملء قلبى ؛ فلا تلتمس فىّ طباع أنثى وإلا ضل ضلالك أيها الحبيب ... ! »

قال : « فهل رأيتنى يا حبيبتى إلا فكرة تطيف أبداً بك ، وروحاً ترفرف حواليك . ونفساً تغترف الشعر والحكمة من وحى عينيك ... ؟ » قالت : « دع عنك ذكر عينىّ يا حبيبى . إن الحب ليس هناك ، إن الحب ... » قال : « لا تحدثينى عن الحب ، يخيل إلىّ أنى أعرفه لأنى أجد مسّه على قلبى كلذع الجمر ، ولكن آه ، ولكنك أنتِ ... »

وقالت له نفسه : « إنك يا صاحبى تضرب فى بيداء ؛ إن الشعر والحكمة والفلسفة لا تلد الحب ، فهل أحببتها أنت إلا للشعر والحكمة والفلسفة ؟ ولكنك بذلك لن تجد منها الحب ، إن الحب من لغة القلب ، أما هذه ... »

وكان يحبها أديبة فيلسوفة شاعرة ، فعاد يباعد بينه وبينها أنها فيلسوفة شاعرة !

* * *

وامرأة هى كانت — إلى أدبها وفلسفتها — « فتنة خلقت امرأة ، فإذا نظرت إليك نظرتها الفاترة فإنما تقول لقلبك : إذا لم تأت إلىّ فأنا آتية إليك ... وهى أبداً تشعر أن فى دمها شيئاً لا يوصف ولا يسمى ولكنه يجذب ويفتن ، فلا تراها إلا على حالة من هذين ، حتى ليظن كل من حادثها أنها تحبه وما به إلا أنها تفتنه ... « رشيقة جذابة تأخذك أخذ السحر ، لأن عطر قلبها ينفذ إلى قلبك من الهواء ؛ فإذا تنفست أمامها فقد عشقتها ...

« أما أنوثتها فأسلوب فى الجمال على حدة ؛ فإذا لقيتها لا تلبث أن ترى عينيك تبحثان فى عينيها عن سر هذا الأسلوب البديع فلا تعثر فيهما بالسر ولكن بالحب... وتنظر نظرة الغزال المذعور أُلهم أنه جميل ظريف فلا يزال مستوفزاً يتوجس

فى كل حركة صائداً يطلبه ... ...[1] »

والرافعى رجل كان — على دينه وخلقه ومروءته — ضعيف السلطان على نفسه إذا كان بإزاء امرأة ؛ فما هو إلا أن يرى واحدة لها ميزة فى النساء حتى يتحرك دمه وتنفعل أعصابه ؛ وما كان — رحمه الله — يرى فى شدة الإحساس بالرجولة وفى سرعة الاستجابة العصبية إلى المرأة إلا أنها أحد طَرَفى النبوغ ، أو أحد طرفى النبوّة كما كان يقول ؛ فما كان يرى له وقاية من سحر المرأة حين يحس أثرها فى نفسه إلا أن يسرع فى الفرار ، وكثيراً ما كان يقول : « الفرار الفرار ؛ إنه الوسيلة الواحدة إلى النجاة من وسوسة الشيطان وغلبة الهوى ... ! »

وقالت له نفسه : « ما أنت وهذا الحب الذى سلبك الإرادة وغلبك على الكبرياء ويوشك أن يهوى بك من وسوسة النفس وفتنة الهوى إلى أرذال البشرية ...! »

فكان لصوت النفس فى أعماقه صدى بعيد ...

* * *

وكان يحبها ليجد فى حبها ينبوع الشعر ، فما وجد الحب وحده ، بل وجد الحب والألم وثورة النفس وقلق الحياة ؛ ووجد فى كل أولئك ينابيع من الشعر والحكمة تفيض بها نفسه وينفعل بها جنانه ويضئ بها فكره ؛ وكان آخر حبه الألم ، وكانت آلامه أول قدْحة من شرار الشعر والحكمة ...

وقالت له نفسه : « ها أنت ذا قد بلغتَ من الحب ما كنت ترجو ، فلم تبق إلا الغاية الثانية وإنك عنها لَعَفٌّ كريم ... ! »

* * *

وهى فتاة ذات جمال وفتنة ، ولها لسان وبيان ، وما يمنعها دينها ولا شىء من تقاليد أهلها أن يكون لها مجلس من الرجال فى ساعة فى يوم من كل أسبوع ، يضم من شعراء العربية ورجالاتها أشتاتاً لا يؤلفها إلا هذا المجلس المعطر بعطر

---

(١) رسائل الأحزان

الشعر وعطر المرأة الجميلة ؛ أفتراهم يجتمعون فى دارها كل أسبوع لتتوارى منهم خلف حجاب فلا سمر ولا حديث ؟

والرافعى غيور شموس كثير الأثرة ، لا يرضيه إلا أن يكون على رأس الجماعة .

وقالت له نفسه : « أأنت هنا وحدك أم ترى لكل واحد من هؤلاء هنا هوى وحبيباً ... ؟ »

* * *

وكانت القطيعة بين الرافعى وبينها من أجل ذلك كله : من أجل أن له ذاتا وكبرياء ، وما يريد أن تفنى ذاته وكبرياؤه فى امرأة ؛ ومن أجل أنها فيلسوفة وشاعرة ، وما تجتمع الفلسفة والحب فى قلب حواء ؛ ومن أجل أنها أنثى وأنه رجل له دين ومروءة وزوجة ودار ؛ ومن أجل أنه بلغ مبلغه منها حين وجد الألم فى حبها فوجد ينبوع الشعر الذى كان يفتقد ؛ ومن أجل أنه الرافعى الغيور الظنين الكثير الأثرة والاعتداد بالنفس ... !

وخُيِّل إليه حين كتب إليها رسالة القطيعة فى يناير سنة ١٩٢٤ أنه يبغضها ، وأن هذا الحب الذى قطعه عن دنيا الناس عاماً بحاله قد انتهى من تاريخه وطواه القدر فى مَدْرَجة الفناء ، وأن نفساً كانت فى الأسر قد خرجت إلى فضاء الله ...

وأحس فى نفسه حديثاً طويلا يريد أن يفضى به ، وشعر كأن فى قلبه ناراً تَلظَّى ، واصطرعت فى نفسه ذكريات وذكريات ، وخيِّل إليه أنه يكاد يختنق ؛ فصاح من كل ذلك مغيظاً محنقاً يقول : « أيتها المحبوبة ، إننى أبغضك ... إننى أبغضك أيتها المحبوبة ! »

ليت شعرى ، أكان الرافعى يعنى ما يقول ؟ أكان على يقين حين زعم أنه يبغضها ؟ أم أنه استعار للحب لفظاً متكبِّراً من كبرياءه العاتية فسماه البغضَ وما هو به ولكنها ثورة الحب حين يبلغ عنفوانه فتختلط به مذاهب الفكر ومذاهب النظر فلا يبقى فيه شىء على حقيقته ؟

كلا ، ما أبغض الرافعى صاحبته يوماً منذ كانت ولا استطاع أن يفك نفسه من وثاقها ، وما هذه الثورة التى ألهمته كتابيه « رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر » إلا لون من ذلك الحب وفصل من فصوله وكان الخطأ فى العنوان ؛ فلما ثابت إليه نفسه نزع به الحنين إلى الماضى ولكن كبرياءه وقفت فى سبيله ، فظل حيث هو ولكن قلبه ظل يتنزى بالشوق والحنين ... !

وجاءت صاحبته إلى طنطا بعد ذلك بقليل ، مدعوّة إلى حفلةٍ خيرية لتخطب ، وكان الرافعى مدعواً لمثل ما دعيت له . وعلى غفلة التقت العيون ، فدار رأس الرافعى وذُهب به ؛ وعاد الزمان القهقرى لينشر ما ضيه على عينيه ، وزلزلت نفسه زلزالاً شديداً حتى أوشك أن تغشاه غاشية ، وحاول أن يتحدث فوقفت الكبرياء بين قلبه ولسانه ؛ وخشى أن يفتضح فنهض عن كرسيه منطلقاً إلى الباب ؛ ولحقه صديقه الأديب جورج إبراهيم ، فأفضى إليه بذات صدره وودع صاحبته بعين تختلج ، ومضى ...

وانتهى الاحتفال ، ووقفت (هى) تدير عينيها فى المكان فما استقرتا على شىء ؛ ووجدت فى نفسها الجرأة على أن تقول : « أين الرافعى ؟ » فما وجدت جواباً ... وكان الرافعى وقتئذ جالساً إلى مكتبه ينشىء قصيدة لمجلة المقتطف عن بعث الحب ... وكان آخر لقاء ...!

* * *

ولقيتُ الرافعى فى خريف سنة ١٩٣٢ ، فتسرحنا فى الحديث عن الحب ، فكشف لى عن صدره فى عبارات محمومة وكلمات ترتعش ، ثم قال : « ... وإن صوتاً ليهتف بى من الغيب أن الماضى سيعود ، وأننى سألقاها ، وسيكون ذلك فى تمام عشر سنين من رسالة القطيعة : فى يناير سنة ١٩٣٤ ... » وأخذ يقبض أصابعه ويبسطها ثم قال :

« نعم ، بعد أربعة عشر شهراً سيكون هذا اللقاء ... إن قلبى يحس ، بل

إنني لموقن ... بعد أربعة عشر شهراً ، فى تمام السنة العاشرة منذ فارقتها مغضباً ، سنلتقى ثانية ويعود ذلك الماضى الجميل ، إنها تنتظر ، وإننى أنتظر ...! » وظل على هذا اليقين أشهراً وهو يحصى الأيام والأسابيع كأنه منها على ميعاد ...!

ومضت السنوات العشر ، ومضى أربعون شهراً بعدها ، وما تحقق أمله فى اللقاء حتى لقى الله ...!

* * *

هـذا هو الرافعى العاشق ، جلوت صورته كما عرفته ؛ أما هى ، أما صاحبته التى كان من تاريخه معها ما كان ، فهل كانت تحبه ؟ وما كان هذا الحب ؟ وما ذا كانت غايته ؟

# هى وهو ... ؟!

« أتذكر إذا التقينا وليس بيننا شابكة مجلسنا مع الجالسين لم نقل شيئاً فى أساليب الحديث غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باثنين فيما بين قلبيهما ؟

« ... وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا فى التلاقى بعد فراق طويل ، كأن فى كلينا قلباً ينتظر قلبا من زمن بعيد ؟

« ... ولم تكد العين تكتحل بالعين حتى أخذت كلتاهما أسلحتها ... وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب ... ؟

« وقلت لى بعينيك : أنا ... وقلت لك بعينى : وأنا ... وتكاشفنا بأن تكاتمنا ؟

« وتعارفنا بأحزاننا كأن كلينا شكوى تهم أن تفيض ببثها ؟

« وجذبتنى سحنتك الفكرية النبيلة التى تضع الحزن فى نفس من يراها ؛ فاذا هو إعجاب ؛ فاذا هو إكبار ؛ فاذا هو حب ؟

« وعودت عينى من تلك الساعة كيف تنظران إليك ؟

« وجعلت أراك تشعر بما حولك شعوراً مضاعفا كأن فيه زيادة لم تزد ؟

« وكان الجو جو قلبينا ...

« وتكاشفنا مرة ثانية بأن تكاتمنا مرة ثانية ... ؟ » ( هى )

* * *

« ... بماذا أصف مكانا للحب كأنما مر به سر الخلود فاذا الوقت فيه لا يشبه نقصانا من العمر بل زيادة عليه ؛ وكانت ياحبيبتى كل دقيقة وثانيتها في مجلسك الساحر كأنها بعض الفكرة والحس لا بعض الزمان والمكان ...

« ... وكنت وما أشعر من سحرك إلا أنى بازاء سر وضعنى فى ساعة من غير الدنيا وحصرنى فيك وحدك ...

« وهاجتنى من يقظتى واقتحمت على من حذرى ...

« وخليتنى وعينيك ، وخلتنى وما كتب على ...

« واتسعت روحى لتشملك ، فما كنت تتكلمين ولا تضحكين ولا تخطرين فى غرفتك ولكن فى داخل نفسى ...

« ... وكنا نتكلم ولكن ألفاظنا تتعانق أمامنا ويلثم بعضها بعضا من حيث لا يراها إلا عيناى وعيناك

« وتراءت النفسان فملأتا المكان بأفراح الفكر ، واستفاض السرور على جمالك بمعنى كلون الزهرة النضرة هو عطرها للنظر

« وقلت لى بجملتك : أنا ... وقلت لك بجملتى : وأنا ... » ( هو )

إنى لأعرفه عرفانى بنفسى ، فما بى شك فيما أكتب عن حبه ؛ ولقد خلطنى بنفسه زمناً فإنى لأسمع نجواه وأقرأ سره وأعرف ذات صدره ، فما أصف من حبه إلا مستيقناً كأنما أنقل عن لوح مسطور فى فؤادى ، أو أثبت من حادثة فى تاريخ أيامى ماثلة فى نفسى بصورها وألوانها وحوادثها فما يغيب عنى منها شىء . ولولا تقاليد الناس وآداب الجماعة لمزقت النقاب عن وجه الحديث وجلوته على القراء فى بيان سافر كإشراق الضحى ، ولكن ... ولكنها هى ...

أما هى فما فى يدى شىء من خبرها إلا ما حدثنى به الرافعى أو حدثتنى رسائله ، فما أتحدث عن حبها إلا راوية يكتب ما يسمع لا ما يشهد ، أو محققاً يضع كلمة إلى كلمة ، ويزاوج بين رسالة ورسالة ليخرج منهما معنى ليس فى يده من حقيقته شىء إلا ما يهديه الفكر وصواب الرأى وملابسات الحادثة

وإنها لأديبة شاعرة يعرفها كثير من قراء العربية وأعرفها عرفانهم ، وحسبى هذا مقدمات إلى النتيجة ، ومايعسر على من يمسك طرف الخيط أن يصل إلى آخره

* * *

لقد التقيا وما بينهما شابكة ولا يربطهما سبب ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها حتى ارتبطا قلباً إلى قلب ؛ وكان الأدب رباط بينهما أول ما كان ، ثم استجرّهما الحديث إلى فنون من الكلام فكشفت له عن آلامها وكشف لها عن آلامه ، فكان عطف وإشفاق ؛ ثم تحدثت عن أحلامها وتحدث عن أحلامه ، فكان الحب ؛ ثم ... ثم كانت القطيعة حين بلغ الحب غايته ونال مناله من نفسها ومن نفسه ، فافترقا حين كان يجب أن يبدأ اللقاء ليتذوقا سعادة الحب ويقطفا من ثمراته ... وضرب الدهر من ضرباته فإذا هو تحت الرغام ، وإذا هى فى المستشفى تتمرض من وهن فى أعصابها ؟

* * *

لم تكن ( هى ) تقصد الحب ولا تعمدته ولا كان هو ، ولكنها أديبة تعرف موازين الكلام ، لقيت الأديب الذى تعجب به ويفتنها بيانه فأحبته ( عقلاً جميلاً ) كما تسميه فى بعض رسائلها ...

وكان سعيه إليها يلتمس الشعر والحكمة ، والشعر والحكمة هما رابطتها إليه وفاتنتها به ؛ فتصنعت له لتفتنه وتزيده شعراً وحكمة ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيد هى به ؛ لأنها وجدت به نفسها ، ووجدت به الشعر والحكمة والبيان ؛ فأحبته ( أستاذها ومرشدها ) لأنه أوحى إليها ما عجز دونه الأخرون ، لأنه فجر لها ينبوع الشعر وعلمها البيان . هكذا تقول فى بعض رسائلها ...

* * *

وهى فتاة لم يسالمها الدهر ولم تزل منذ كانت — غرضاً لسهام الأيام ، تنوشها الآلام من كل جانب ، ولها نفس شاعرة تضاعف أحزانها فتجعل لها من كل همٍّ همين ، وإن حواليها لكثيراً من الأصدقاء يزدلفون إليها ويخطبون ودها ، ولكنها تريد الصديق الذى يستمع إلى شكواها من الأيام فتستريح إليه ، أكثر مما تريد الصديق الذى لاتسمع منه إلا كلمات الزلفى والتحبّب واصطناع الهوى والغرام ... وتحدث إليها الرافعى وتحدثت إليه ، وقصت عليه من أحزانها ، فاخضلّتْ عيناه وأطرق ، فوضعت يدها على يده وهى تقول :

« سأدعوك أبى وأمى متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر ، وسأدعوك قومى وعشيرتى ، أنا التى أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين ؛ وسأدعوك أخى وصديقى ، أنا التى لا أخ لى ولا صديق ؛ وسأطلعك على ضعفى واحتياجى إلى المعونة ، أنا التى تتخيَّل فىَّ قوة الأبطال ومناعة الصناديد !

« وسأبين لك افتقارى إلى العطف والحنان ، ثم أبكى أمامك وأنت لا تدرى ... ! »

وأحبته ( صديقاً ) تفزع إليه إذا ضاقت بآلامها وحزبتها الهموم ...

* * *

وهى الفتاة التى لم تعرف فى حياتها إلا التجهم والعبوس ، ولم تعرف من دنياها إلا الجد الصارم ؛ وما كان لها من عمل غير الاستغراق فى الفكر ، أو الاستغراق

فى الفن ؛ وإنها لأنثى وإن كانت فيلسوفة شاعرة ...

والرافعى رجل — كان — لا يحمل من هم ، فما يدع المزاح والدعابة وإن الدنيا لتصطرع حواليه وإن كان القضاء منه بمرصد يراه ويتوقعه ! وإنه ليهزل فى أجدِّ الجد وأحرج الساعات هزلَه فى أصفى حالاته وأسعد أيامه ؛ فما يجالسه ذو هم إلا سُرِّى عنه كأنما يمسح قلبه فيمحو أحزانه ...

وتحدث إليها وتحدثت إليه ، فأحبته ( الرفيق الأنيس ) الذى تسيطر عليها روحه فينتزعها من دنياها العابسة إلى دنياه ...

* * *

واستمعت إلي صوته يتحدث ، فكان له فى نفسها رنين ؛ ونظرت إلى سحنته الفكرية النبيلة فرأت فيها مرآة نفس صافية لا تعرف الخداع والتزوير ؛ ولمحته يبتسم ، فجذبتها إليه ابتسامة لم تجد مثلها إلا زيفاً على شفاه الرجال ؛ ونظر إليها ونظرت إليه ، وقال وقالت ، وتحدث قلب إلى قلب ، وتناجيا فى صمت ؛ وتركها وهى فى نفسه ، ومضى وهو فى مجلسها ؛ وأحست فى نفسها إحساساً ليس لها به عهد ؛ فتناولت قلمها لتكتب له :

« ... سأستعيد ذكرك متكلما فى خلوتى لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك ، حكاية البشر المتجمعة فى فرد واحد ؛ وسأتسمع إلى جميع الأصوات علِّى أعثر فيها على لهجة صوتك ، وأُشرِّح جميع الأفكار وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديري لآرائك وأفكارك ... وسأبتسم فى المرآة ابتسامتك .

« فى حضورك سأتحول عنك إلى نفسى لأفكر فيك ، وفى غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك ...

« سأتخيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ، وكيف تتغلب على عادىِّ الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل ...

« وفى أعماق نفسى يتصاعد الشكر لك بخوراً ، لأنك أوحيت إلى ما عجز دونه

الآخرون. أتعلم ذلك ، أنت الذى لاتعلم ؟ أتعلم ذلك ، أنت الذى لا أريد أن تعلم ...!»

* * *

وكان حبها إعجاباً بالعقل الجميل ، ثم تقديراً لأستاذها الذى فجر لها ينبوع الشعر والبيان ، ثم إجلالا للصديق الذى وجدت مفزعها إليه ، ثم انعطافاً إلى الرفيق الأنيس الذى كشف لها عن أفراح الحياة ، ثم .. ثم حباً يستأثر بنفسها ويسيطر عليها فى غيبه ومشهده فما لها عمل إلا أن تفكر فيه ...

وأضلها الهوى وأضله ؛ وخيل إليها أنها تستطيع أن تكون أرفع محلاً لو أنها منعته بعض ما تمنحه ، وخيل إليه أنه يستطيع ؛ وقالت له : « أنا لا أشفق على آلامك ؛ وهل ترانى أكره لك النبوغ والعبقرية ؟ » وقالت له كبرياؤه وغيرته وظنونه غير ما قالت صاحبته ؛ ومضى كل منهما إلى طريق والقلب يتلفت ؛ وما عرفت إلا من بعد أنه يحبها حباً لا يطيق أن يتسع أكثر مما تتسع له نفس إنسان ؛ وما عرف إلا من بعد أنها كانت تجافيه لتطلب إليه أن يكون فى الحب أجرأ مما كان . . .

وعرف وعرفتْ ، ولكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفيلسوف وكبرياء المتكبر ؛ وظلّ وظلت وبينهما البعد البعيد على هوى وحنين ... حتى جاء الموت فحل العقدة التى استعصت على الأحياء ...

# تعقيب

... هذه قصة الراقمى وفلانة ، كما رواها لى ، وكما يعرفها كثير من خاصته . وإنى لأعلم أن كثيراً ممن يعرفونها ويعرفونه سيدهشون إذ يقرءون قصة هـذا الحب ، وسيتناولونها بالريبة والشك ، وسيقول قائل ، وسيدعى مدع ، وسيحاول محاول أن يفلسف ويعلل ؛ ولا علىَّ من كل أولئك ما دمت أروى القصة التى أعرفها ، والتى كان لها فى حياة الرافعى الأدبية تأثير أىُّ تأثير يُرَدُّ إليه أكثر أدبه من بعد . وحسبه أنه كان الوحى الذى استمد منه الرافعى فلسفة الحب والجمال فى كتبه الثلاثة : رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد . وحسبى أننى قدمت الوسيلة لمن يريد أن يدرس هذه الكتب الثلاثة على أسلوب من العلم جديد !

على أنى مسئول أن أبرئ نفسى أمام قدس الحق ؛ فأعترف هنا بأن ما رويت من هذه القصة كان مصدره الرافعى نفسه ؛ مما حدثنى به وحدّث أصحابه ، أو مما جاء فى رسائل أصحابه إليه ممن كانوا يعرفون قصته ؛ وما بى شك فيما روى من هذا الحديث ، فما جرّبت عليه الكذب ، ولا كان هناك ما يدعوه إلى الاختراع والتزيد كما يزعم من يزعم ؛ ولكنها حقيقة أثبتها للتاريخ ، لعل باحثاً مدققاً يوفَّق فى غد إلى إثبات ما أعجز اليوم عن التعليل له .

على أن الرافعى قد أقرأنى رسالة أو رسالتين بخط ( فلانة ) إليه ؛ وهما وإن لم تدلا دلالة صريحة على حقيقة ما رويت من قصة هذا الحب ، لا تنفيانها كذلك ، بل لعلهما أقرب إلى الإثبات منهما إلى النفى ؛ والحذر طبيعة المرأة !

ثم إن الرافعى لم يخصّنى وحدى برواية هذه الحادثة ؛ فإن عشرات من الأدباء فى مصر قد سمعوها منه ؛ ومنهم من يعرف ( فلانة ) معرفة الرأى والنظر ، ومنهم من كان يغشى مجلسها لا يتخلف عنه مرة ؛ ومنهم من كان الرافعى يقصد بالحديث إليه أن يكون بريداً بينهما ينقل إليها حديثه شفةً إلى شفة . وفى الناس يُرُدُ

إن لم تزد على ما سمعتْ من حديث الحب لم تنقص منه شيئاً ! فلو أن الرافعى كان يتزيّد فيما روى لى ولأصحابى من حديث هذا الحب لخشى مغبّة أمره ؛ وإن ( فلانة ) يومئذ ذات جاه وسلطان !

وثمة برهان آخر لا يتناوله الشك ؛ هو رسالة من رسائلها نقلها الرافعى من كتاب من كتبها المعروفة لأسميه ، إلى كتابه أوراق الورد[1] ؛ يزعم أنها رسالة منها إليه فى كتاب ، جواباً على رسالة بعث بها إليها — وكانت هذه بعضَ وسائلهما فى المراسلة كما رويتُ من قبل[2] — وأوراق الورد معروف مشهور ، وكتابها معروف مشهور كذلك ؛ ومما لا يحتمل الشك أن تكون ( فلانة ) لم تقرأ هذه الرسالة فى كتاب الرافعى ولم ينبهها أحد إليها ، وأبعد من الشك أن تكون قد قرأت هذه الرسالة المنشورة قبل ذلك فى كتاب يحمل اسمها ثم لم تفهم ما يعنيه الرافعى ؛ ولا شىء وراء ذلك إلا أن تكون قرأتْ ، وفهمتْ ، وسكتتْ ؛ ولا شىء بعدُ إلا أن يكون بينهما شىء يؤيد ما رواه الرافعى من قصة هذا الحب ... !

* * *

على أن اعتراضات ثلاثة توجهتْ إلى ما رويت من هذه القصة لا بد من التنبيه إليها : أما أحدها فمن الأستاذ الأديب جورج إبراهيم ؛ فهو ينكر علىّ أن أستند إلى هذه الرواية ، ويروى لى أنه صحب الرافعى فى أولى زياراته لفلانة ، وشهد ما كان من تأثر الرافعى وانفعاله وجذْبته ؛ ولكنه إلى ذلك ينكر أن يكون بين الرافعى وفلانة صلة بعد هذه الزَّورة ، ويصحح ما رويته عن الرافعى — وكان من سامعيه — بأنه حبٌّ من طَرَف واحد ، اختلطت فيه مذاهب الفكر ومذاهب النظر فشبّه للرافعى ما شُبه ؛ فما يحكيه هو صورة ما فى نفسه لا صورة ما كان فى الحقيقة ... !

فالرافعى عند الأستاذ جورج إبراهيم لم يكذب ولكنه أخطأ التقدير والنظر .

---

(١) أوراق الورد ص ١٤٣ — ١٥٠ ، وتقرأ فقرات منها فى هذا الكتاب ص ٩٤ — ٩٦

(٢) ص ٨٣ من هذا الكتاب

وعندنا أن عدم علم الأستاذ جورج أن صلة ما كانت بين الرافعي وفلانة بعد الزَّورة الأولى ، لا ينفي أن الصلة كانت حقيقةً ولم يعلم بها ؛ فحديثه من ثَمَّ لا ينفي شيئاً ولا يثبته ، ويبقى بعد ذلك ما يستنبط من الرأي على هامش القصة .

وقريب مما يرويه الأستاذ جورج ، ما تستنبطه جريدة المكشوف في بيروت ، في حديث تناولت به بعض ما نشرنا من قصة حب الرافعي .

* * *

وتعقيب ثان توجه به صديقنا الأستاذ فؤاد صروف — محرر المقتطف — على ما رويناه ، قال :

« لقد سمعت هذه القصة من الرافعي كما رويتَها ؛ فما أشك في صحة ما تكتب ، ولكني أسأل : هل كانت ( فلانة ) تبادل الرافعي الحب ... ؟

« هاك خبراً يدعوك معي إلى هذا السؤال :

« في يناير من سنة ١٩٣٤ ( أو ١٩٣٥ ) دعتني فلانة إلى مقابلتها ؛ فلما شخصتُ إليها رأيت في وجهها لوناً من الغضب ، فدفعتْ إليَّ رسالتين من رسائل الحب بعث بهما الرافعي إليها لأرى رأيي فيهما ؛ ثم قالت : ماذا ترانى أفعل لأذود عن نفسي ؟ أترانى أتقدم في ذلك إلى القضاء ؟

قال الأستاذ صروف : « فاعتصمت بالصمت من لا ونعم ، وتركت لها أن تستشير غيري ؛ ولست أدري ما كان بعد ذلك ! » .

قلت : وهذه رواية جديرة بأن تذكر — ومعذرة من ذكرها إلى الأستاذ صروف — على أنها لا تدل على شيء في هذا المقام أكثر من أن فلانة لم يكن يروقها في سنة ١٩٣٤ أن يتحبّب إليها الرافعي ؛ فماذا كان أمره وأمرها قبل ذلك بعشر سنين ؟

أيكون لهاتين الرسالتين اللتين يتحدث عنهما الأستاذ صروف — صلة بما كان في نفس الرافعي من يقين بأنه سوف يلقى فلانة ليصل ما انقطع من حبال الود بعد عشر سنين من يوم القطيعة [1] .

---

(١) اقرأ ص ٩٠ — ٩١ من هذا الكتاب

أعنى : هل حاول الرافعى — بعد عشر سنين من القطيعة — أن يعيد ما كان بهاتين الرسالتين فلم يصادف قلباً يستجيب لدعائه ؟

على أن هـذا الخبر — أيضاً — لا ينفى شيئاً ولا يثبته ؛ ولـكنه يفتح باباً إلى الاستنباط والرأى .

ولـكنه مما لا شك فيه أن الرافعى لم يكن يعلم شيئاً عن وقع هاتين الرسالتين فى نفس صاحبته ؛ ولا أحسبها صنعت شيئاً يدل على مبلغ استيائها من هاتين الرسالتين ، وإلا لما ظل يتعلق بالأمل فى لقائها إلى شتاء سنة ١٩٣٥ ، وكنت معه لما هم بزيارتها [١] .

* * *

وثمة اعتراض ثالث يعترضه الدكتور زكى مبارك ؛ وما كان لى أن أثبته هنا لولا أن أثبته هو فى كتاب من كتبه نشره على الناس منذ قريب ، ولولا أن أشار إليه فى مقالات نشرها فى مصر وفى العراق وفى بيروت !

والدكتور زكى مبارك أديب مشهور ، ولـكن آفته — ولـكل أديب آفة — أنه يدس أنفه فيما يعنيه وما لا يعنيه ؛ وهو قد شاء أن يحشر نفسه فى هذه القصة التى لا يهمه منها إلا أن يعلن للناس — والإعلان عن نفسه بعض خصائصه الأدبية — أنه كان يجلس إلى ( فلانة ) جنباً لجنب فى الجامعة المصرية بضع سنين !

وليس يهمنا أن يجلس الدكتور زكى مبارك جنباً لجنب إلى فلانة أو إلى نساء الأرض جميعاً — كما يريد أن يتعالم عنه الناس فى أكثر ما يكتب — ولـكنه يزعم أن ما كتبناه عما كان بين الرافعى وفلانة ليس من الحقيقة فى شىء، لأنه كان يجلس مع فلانة جنباً إلى جنب فى الجامعة بضع سنين فلم تحدثه يوماً أن حبًّا كان بينها وبين الرافعى ... ... ! !

فمن شاء أن يقرأ مثلاً للحجة الواضحة فى أدب الدكتور زكي مبارك ، فليقرأ هـذه الحجة ؛ على شرط أن يكون مؤمناً بأن الدكتور زكى مبارك لا يجلس

(١) انظر ص ٨٤ من هذا الـكتاب .

إلى ( فلاناتٍ ) ولا يجلس إليه ( فلاناتٌ ) إلا ليحدثنه عما كان لهن من جولات فى ميادين الحب يسألنه الرأى والمعونة !

وليدع القارئ بعد ذلك حديث الدكتور عن العرى والعراة ، وعن ( الأديب العريان ... ) الذى روى هذه القصة .

وعفا الله عن أهل الأدب !

* * *

هذا كل ما تلقيت من اعتراض المعترضين ، من أهل الأدب أو من أهل الدعوى ؛ وعلى أى الوجوه انتهى رأى الأدباء فى تحقيق هذه القصة ، فإنه مما لا شك فيه أن الرافعى كان يحب ( فلانة ) ؛ وهذا حسبى ؛ فما يعنينى من هذا التاريخ إلا إثبات المؤثرات التى كانت تعمل فى نفس الرافعى فتلهمه الشعر والبيان ؛ أما هى وما كان منها وحقيقة عواطفها ، فشىء يتصل بتاريخها هى بعد عمر مديد !

ونعود إلى تتمة القصة بالحديث عن كتب الرافعى فى فلسفة الجمال والحب .

# رسائل الأحزان

« هى رسائل الأحزان ، لا لأنها من الحزن جاءت ، ولكن لأنها إلى الحزن انتهت . ؛ ثم لأنها من لسان كان سلما يترجم عن قلب كان حربا ؛ ثم لأن هذا التاريخ الغزلى كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضيا إلى قبر ... ! »

( الرافعى )

خرج الرافعى من مجلس صاحبته مغضباً على ما روينا ؛ فى نفسه ثورة تؤجّ ، وفى أعراقه دم يفور ، وفى رأسه مرجل يتلهب ؛ وكتب إليها كتاب القطيعة وأرسل به ساعى البريد ، ثم عاد إلى نفسه فما وجد فيما كتب شفاء لنفسه ، ولا هدوءاً لفكره ، ولا راحة فى أعصابه ؛ وأحس لأول مرة منذ كان الحب بينه وبين صاحبته أنه فى حاجة إلى من يتحدث إليه ؛ وافتقد أصحابه فما وجد منهم أحداً يبثه أحزانه ويفضى إليه بذات صدره ويطرح بين يديه أحماله . لقد شغله الحب عن أصحابه عاماً بحاله لا يلقاهم ولا يلقونه ولا يتحدث إليهم ولا يتحدثون ؛ فلما عاد إليهم كان بينه وبينهم من البعد ما بين مشرق عام ومغربه بلياليه وأصباحه وتاريخه وحوادثه . وثقلت عليه الوحدة وضاقت بها نفسه ، ففزع إلى قلمه يشكو إليه ويستمع إلى شكاته ، فكتب الرسالة الأولى من « رسائل الأحزان » إلى صديقه الذى خصه بسره ... إلى نفسه .

وترادفت رسائله من بعد مسهبة ضافية يصف فيها من حاله ومن خبره وما كان بينه وبين صاحبته ، فى أسلوب فيه كبرياء المتكبر ، ولوعة العاشق ، ومرارة الثائر الموتور ، و... وذلة المحب المفتون يستجدى فاتنته بعض العطف والرحمة والحنان

بدأ الرافعى كتابة « رسائل الأحزان » فى يناير سنة ١٩٢٤ ، وانتهى منه فى مساء ١٧ من فبراير سنة ١٩٢٤ .

* * *

يخاطب الرافعى نفسه فى « رسائل الأحزان » على أسلوب ( التجريد ) ، فهو يزعم أنها رسائل صديق بعث بها إليه ، فتراه يوجّه الخطاب فيها إلى ذلك الصديق المجهول يستعينه على السلوان بالبث والشكوى ؛ ثم يصطنع على لسان ذلك الصديق نتفاً من الرسائل يدير عليها أسلوباً من الحديث فى رسائله هو ، وما هناك صديق ولا رسائل ، إلا الرافعى ورسائله ، يتحدث بها إلى نفسه عن حكاية حبه وآماله وما صار إليه .

أو قل : إن الرافعى فى هذه الرسائل جعل شيئاً مكان شىء ، فأنشأ هذه الرسائل إلى صاحبته ثم نشرها كتاباً تقرؤه لتعلم من حاله ما لم تكن تعلمه أو ما يظن أنها لم تكن تعلمه ؛ فهى رسائله إليها على أسلوب من كبرياء الحب ، تشفى ذات نفسه ولا تنال من كبريائه .

وفى بعض حالات الحب حين تقف كبرياء العاشق بينه وبين ما يريد إعلانه ، وتقف النفس وقفتها الأليمة بين نداء القلب وكبرياء الخُلق ، يتمنى العاشق لو كان له ملء الفضاء ليهبه إلى من يحمل عنه رسالة إلى حبيبته من غير أن يعترف بأنه رسول ... ! وتكون أبلغ الرسائل عنده أن يكتب إلى حبيبته : « إنه يحبك » يعنى : « أنا أحبك ! » ويتحدث إليها عن نفسه بضمير الغائب وهو من مجلسها على مرأى ومسمع ، ومن لفتات قلبها وقلبه على مشهد قريب ... !

وبهذا الأسلوب تحدث الرافعى عن نفسه بضمير الغائب فى رسائل الأحزان .

« أنا ... » هذا الضمير الذى لا يتحدث به متحدث إلا سمعتَ فى فيه معنى شموخ الأنف ، وصَعَر الخد ، وكبرياء الخُلق ؛ لا يؤدى فى لغة الحب إلا معنى من التذلل والشكوى والضراعة ، فما تسمعه من العاشق المفتون إلا فى معنى اليد الممدودة للاستجداء ، وما تقرأ ترجمته فى أبلغ عبارة وأرفع بيان وأكبر كبرياء إلا فى معنى : « أنا محروم ... ! » .

يا عجباً للحب ! كل شىء فيه يحول عن حقيقه حتى ألفاظ اللغة وأساليب الكلام ... !

وكذلك كان الرافعى يقول فى رسائل الأحزان : «هو» ويعنى : « أنا ... »

لأنه لا يريد أن يبتذل كبرياءه فى لغة الحب ... ... !

* * *

إننى أحسب الرافعى لم يكتب رسائل الأحزان لتكون كتاباً يقرؤه الناس ، ولكن لتقرأه هى ، وهى كل حسْبه من القراء ؛ فمن ذلك لم يجر فيها على نظام المؤلفين فيما يكتبون للقراء من قصة فيها اليوم والشهر والسنة ، وفيها الزمان والمكان والحادثة ؛ بل أرسلها خواطر مطلقة لا يعنيه أن يقرأها قارئها فيجد فيها اللذة والمتاع ، أو يجد فيها الملل وحيرة الفكر وشرود الخاطر .

ولم يكتبها — كما يزعم — رسائلَ أدبية عامة تتم بها العربية تمامها فى فنٍّ من فنون الرسائل لم يُؤْثر مثلُه فيما نقل إلينا من تراث الكتاب العرب ، ليحتذيه المتأدبون وينسجوا على منواله ؛ بل هى رسائل خاصة تترجم عن شىء كان بين نفسين فى قصة لم يذكرها فى كتابه ولم ينشر من خبرها .

وبذلك ظلت « رسائل الأحزان » عند أكثر قراء العربية شيئاً من البيان المصنوع تكلَّفَه كاتبُه ليحاول به أن يستحدث فنًّا فى العربية لم يوفق إلى تجويده . على أنه كتاب فريد فى العربية فى أسلوبه ومعانيه وبيانه الرائع ، ولكنه بقيةُ قصةٍ لم تنشر معه ، فجاء كما تأكل النار كتاباً من عيون الكتب فما تُبقى منه إلا على الهامش والتعليق ، وصُلْبُ الكتاب رماداً فى بقايا النار ...

فمن شاء أن يقرأ رسائل الأحزان فليقرأ قصة غرام الرافعى قبل أن يقرأه ، فسيجد فيه عندئذ شيئاً كان يفتقده فلا يجده ، ولسوف يوقن يومئذ أن الرافعى أنشأ فى العربية أدباً يستحق الخلود .

* * *

قلت : إن الرافعى أنشأ رسائلَ الأحزان ليكون رسالة إليها هى ، فهذا كان أول أمره فيما بينهما من الرسائل التى قلت عنها فيما سبق إنهما كانا يتبادلانها على أعين القراء من غير أن يذيع السر أو ينكشف الضمير ، ومن غير أن يسعى بينهما حامل البريد ؛ ولقد ردَّت صاحبته ردَّها على رسالته هذه برسالة مثلها بعثتْ بها

إليه مع بائع الصحف والمجلات ... ثم تتابعت رسائلهما من بعد على هذا الأسلوب العجيب ... !

وسيأتى يوم يُدرس فيه أدب فلانة صاحبة الرافعى ، وسيجد الباحثون يومئذ لوناً لذيذاً من البحث إذ يعثرون على رسائلها إليه فى بعض كتبها ومقالاتها ، وليس بعيداً أن يقرأ الأدباء يومئذ كتاباً جديداً بعنوان « رسائلها ورسائله » بتاريخها وزمانها وأسبابها ، مقتبسةً مما نَشر ونشرتْ فى الصحف والمجلات من مقالات وأقاصيص بين سنتى ١٩٢٤ و ١٩٣٦ .

أيها الباحث الذى سيأتى أوانه ، ابحث عن حَشْو القول وفضول الكلام فى مقالاتها ومقالاته ، واقرِن تاريخاً إلى تاريخ وسبباً بسبب ، لتنشر لنا رسائلها ورسائله فى كتاب ... !

* * *

أرانى لم أتحدث عن « رسائل الأحزان » كما يتحدث كاتب من الكتاب عن كتاب من الكتب ، فليس هذا إلىّ ، وإنما قدّمتُ وسائل القول لمن يريد أن يقول ؛ وأحسب أن كلاماً سيقال عن رسائل الأحزان من بعدُ غير ما كان يقال ، وأعتقد أن الدكتور طه حسين بك لن يكرر مقالته التى قالها فيه من قبل ، يوم أشهدَ الله على أنه لم يفهم منه حرفاً ؛ وأعتقد أن الدكتور منصور فهمى بك لن يقتصر على قوله فيه من قبل : « إن معانيه من آخر طراز يأتى من أوربا ... » لأنه سيجد مجالاً للقول فى غير معانيه وبيانه .

* * *

ولكن فى رسائل الأحزان شيئاً غير ما قدمتُ من أشيائه ، ذلك لأن الرافعى — رحمه الله — كان ولوعاً بأن يضيف إلى كل شىء شيئاً من عنده ؛ وتلك كانت طبيعته فى الاستطراد عند أكثر ما يكتب .

سيجد الباحث فى رسائل الأحزان عند بعض الرسائل وفى هامش بعض الصفحات من الكتاب ، كلاماً وشعراً لا يتساوق مع القصة التى دَويت . إلا إن

obeikandl.com

الرافعي كانت تغلبه طبيعته الفنية في الكتابة أحياناً فيستطرد إلى ما لا يريد أن يقول، ليثبت معنى يخشى أن يفوته، أو ليذكر حادثة يراها بالحادثة التي يرويها أشبه، أو لأن تعبيراً جميلاً وجد موضعه الفني من الكلام وإن لم يجد موضعه من الحادثة؛ فإن رأى الباحث شيئاً من ذلك فلا يداخله الريب فيما أثبتُّ من الحقيقة التي أرويها كما أعرفها.

وسيجد في بعض الرسائل حديثاً وشعراً عن لبنان وأيام لبنان؛ وما عرف الرافعي صاحبته إلا في مصر وإن كان مولدها هناك. فليذكر من يريد أن يعلم، أن صاحبة الرافعي هذه لم تكن هي أولى حبائبه، وقد كان له قبل أن يعرفها في الغرام جولان؛ وكان بعض من أحب قبلها فتاة أديبة عرفها في لبنان، وهي سمية صاحبتنا هذه؛ وكان بينهما رسائل أثبت الرافعي بعضها في «أوراق الورد»، وهي التي أنشأ من أجلها كتابه «حديث القمر»، على أن عمر الحب لم يَطُل بينهما، إذ تزوجت وهاجرت مع زوجها إلى أمريكا لتشتغل بالصحافة العربية هناك — وما تزال — فما جاء في رسائل الأحزان من حديث لبنان وذِكر أيامٍ هناك، فهو بقية من ذكرى صاحبة «حديث القمر» أقحمه في رسائله حرصاً عليه وبخلاً به على الضياع.

* * *

لقد كان حب الرافعي الأخير حادثة في أيامه فعاد حديثاً في فكره، ورسائل الأحزان هي أول ما أنشأ من وحي هذا الحب. على إن قارئه يقرؤه فما يعرف أهو رسالة عاشق ألحّ عليه الحب، أم زفرة مبغض يتلذّع بالبغض قلبه. والحق أن الرافعي أنشأه وهو من الحب في غمرة بلغت به من الغيظ والحنق أن يتخيل أنه قادر على أن يبغض من كان يحب، بغضاً يرد عليه كبرياءه وينتقم له؛ فما فعل إلا أن أعلن حبه في أسلوب صارخ عنيف كما تحنو الأم على وليدها في عنفوان الحب فتعضه وإنها لتريد أن تقبله، أو كما تقسو ذراع الحبيب على الحبيب تضمه في عنف وما بها إلا الترفق والحنان ...!

وطبع الرافعي كتابه وأنفذه إلى صاحبته، فكتبت إليه... وثارت ثورة الرافعي مرة ثانية فأصدر «السحاب الأحمر»

obeikandl.com

# السحاب الأحمر

« لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر : يا أنا ... ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين — حين يقع — أعنف ما فى الخصومة ، إذ هو تقاتل روحين على تحليل أجزائهما المتزجة . وأكبر خصيمين في عالم النفس ( هما ) متحابان تباغضا ... »

( الرافعى )

---

ترى ماذا كتبت إليه صاحبته بعد ما قرأت رسائل الأحزان فأثارت نفسه بعد هدأتها وردّته من الغيظ والحنق إلى أن يقول : « يا هذه لاأدرى ماتقولين ؛ ولكن الحقيقة التى أعرفها أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها فى حاجة إلى أن يغسل بالماء والصابون وهيهات ... ! » ويقول : « يجب على المدارس حين تعلّم الفتاة كيف تتكلم أن تعلمها أيضاً كيف تسكت عن بعض كلامها »؟

مَن لى بأن أعرف ما كان وقْع رسائل الأحزان فى نفسها وما ردّتْ به ؟

إنه يتحدث فى السحاب الأحمر عن التهمة والظنون ، والكلام الذى لا يغسله الماء والصابون ، والنجمة الهاوية ، وخداع النظر فى الحب ، وفساد الرأى فى الهوى ، وطيش القلب فى الاستسلام ، ثم ... ثم يحاول أن يعتذر ... !

هنا الحلقة المفقودة فى تاريخ هذا الحب ، فلست أدعى المعرفة ، ولقد كنت مع الرافعى مرة فى مكتبه وبيننا السحاب الأحمر يقرأ لى بعض فصوله ، فأشرت إليه عند فقرة من الكلام ليجيبنى عن سؤال يكشف عن شئ من خبرها ومن خبره ؛ فوضع الكتاب إلى جانبه وحدّق فىّ طويلاً ثم سكت ، وسبحتْ خواطره إلى عالم بعيد ، وراحت أصابعه تعبث بما على المكتب من أشيائه ، ثم قال : « أرأيت القلم الذى تراءى لى السحاب الأحمر فى نِصابه بين عينىّ والمصباح ... ؟ » ثم دس يده فى درج المكتب فأخرجه ودفعه إلىّ وهو يقول : « ضع النصاب بين عينيك والمصباح وانظر . ألست ترى سحاباً يترقرق بالدم كأن قلباً جريحاً ينزف ؟ فى شعاعة هذا النور تراءت لى هذه الخواطر التى تقرؤها فى السحاب الأحمر ... »

ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال ...

* * *

أحسب أن الرافعي حين أنشأ السحاب الأحمر كان فى حالة عصبية قلقة لست أعرف مأتاها ومردَّها ، ولكن فصول الكتاب تتحدث عن خبرها فى شىء من الغموض والإبهام .

لقد أنشأ الرافعى رسائل الأحزان ليكون رسالة إليها يتحدث فيها عن حبه وآلامه . ولست أشك أن صاحبته حين تأدَّتْ إليها رسائله قد فهمت ما يعنيه وعرفتْ ذات صدره . وأحسبها — وهى الأديبة الشاعرة — قد سرَّها أن تكون هى فَلَك الوحى لما فى رسائل الأحزان من كل معنى جميل . أفتراها قد بدا لها أن تهيجه بالدلال والإغراء وقسوة العتب وتصنُّع الغضب لتفتنه وتزيده وحياً وشعراً وحكمة ... ؟

إن كانت هذه رسالتها إليه فما أراها قد بلغت بها إلا أن هاجت كبرياءه وأثارت نفسه ، فكتب كتابه ولكن لغير ما أرادت وما قصدت إليه ...

* * *

يقوم السحاب الأحمر على سبب واحد ، حول فلسفة البغض ، وطيش الحب ، ولؤم المرأة ...

على أن كل ما فيه لا يشير إلا لمعنى واحد : هو أن قلباً وقع فى أسر الحب يحاول الفكاك فلا يستطيعه ؛ فما يملك إلا أن يصيح بملء ما فيه : إننى أبغضك أيتها ... أيتها المحبوبة !

وكما يفزع الشخص إذا حزبه أمره إلى أصدقائه يستعينهم ويستلهمهم الرأى فى بلواه ، كذلك فزع الرافعى فى السحاب الأحمر ، ولكن إلى أصدقاء من غير عالمه يستعينهم على أمره . فهذا صديقه الشيخ على صاحب المساكين ، وهذا صفيُّه وصاحب نشأته الشيخ أحمد الرافعى ، وذلك أستاذه ومثله العالى فى دينه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وهذه أم ضل ولداها الحبيبان ، وتلك زوج يفارقها

obeikandi.com

زوجها الحبيب إلى السجن ؛ وهذا ، وهذه ، وتلك ، يحدثونهم جميعاً حديثهم عن الحب فى رأى العين ، وفى رأى القلب ، وفى رأى العقل . ويحدثهم حديثه ... فما تلمح من أحاديث هؤلاء جميعاً إلا أن الرافعى فى جهاد عنيف بين قلبه وعقله ، يريد أن يثبت الغلبة لعقله على هواه ليخرج من أمر صاحبته برأيه وفكره وكبريائه ثم لا تكون الغلبة فى النهاية إلا للحب على رأيه وفكره وكبريائه

على أن كتاب السحاب الأحمر ليس كله خالصاً لصاحبته وإن يكن من وحيها؛ ذلك أن نسقه العجيب ، ومحاولة الرافعى به أن ينصرف عنها ، قد شرع له فى الكتاب مسالكَ من القول لم تكن مما يقتضيه ما بينه وبين صاحبته

* * *

فى الفصل الأول من السحاب الأحمر ، يتحدث الرافعى عن فتاة « عرفها قديماً فى ربوة من لبنان ، ينتهى الوصف إلى جمالها ثم يقف ! » وهو يعنى صاحبته التى أملتْ عليه « حديث القمر » وإنك لتقرأ حديثه عنها ، ووصفه لها ، وما كان من أثرها فى نفسه ؛ فتسأل نفسك : أى شىء ردَّه إلى هذه الذكرى البعيدة فأيقظها فى نفسه بعد اثنتى عشرة سنة محا الزمان بها فى قلبه وأثبت ؟ فلا تلبث أن تجد الجواب فى الأسطر الأخيرة من هذا الفصل :

« إن من النساء ما يُفْهَم ثم يعلو فى معانيه الجميلة إلى أن يمتنع ، ومن النساء ما يُفهَم ثم يَسفل فى معانيه الخسيسة إلى أن يبتذل ...

« إن من المرأة ما يُحَبّ إلى أن يلتحق بالإيمان ، ومن المرأة ما يُكرَه إلى أن يلتحق بالكفر ... »

« من المرأة حلو لذيذ يؤكل منه بلا شبع ، ومن المرأة مُرٌّ كريه يشبع منه بلا أكل ... ! »

أتراه بهذا يوازن بين واحدة وواحدة ، ليقول لهذه : إن تلك كانت خيراً منك ؟ وهل تحسبه كان يعتقد ذلك ؟ أما أنا فأعرف من أخلاق الرافعى أن هذا معنى لم يكن يعنيه ، ولكنها مساومة فى الحب يريد بها أن يهيج غيرة صاحبته ليردها إليه

أو أنه أراد أن ينقذ كبرياءه فيزعم لصاحبته أنه لم يكن يعنيها برسائل الأحزان ، لأن هنالك أخري ...

* * *

وتقرأ « النجمة الهاوية » فى الفصل الثانى ، فتسمعه يقول : « تتمّ آمالُنا حين لا نؤمل ! » فما تشك أن هناك رسالة إليها ، رسالة يمليها الحب المغيظ المحنق ، يحاول فيها أن يوهمها أنها لم تعد شيئاً فى نفسه ، وأنه قد تمت آماله واستراحت نفسه فليس له فيها أمل ولا يتعلق بها رجاء . ثم يستطرد فى معانى البغض والهجر والقطيعة بأسلوب قاس عنيف ، ولكن قلبه العاشق المفتون ينبض فى كلماته ؛ فما ينتهى الفصل حتى يستعلن حبه من وراء كلمات البغض وهو يقول : « أشأم النساء على نفسها من لا تُحِب ولا تُبغِض ، وأشأمهن على الناس من إذا عدَّتْ مبغضيها لا تَعُدّ إلا الذين أحبوها ... ! » ، وإننى لأعرف الرافعى وأستمع إلى همسات قلبه ، فهل ترى ترجمة هذه العبارة إلا أنه يقول : « إننى أحبك يا أشأم النساء ! ؟ »

إقرأ فى آخر هذا الفصل الصاخب قوله :

يا من على الحب ينسانا ونذكره  لسوف تذكرنا يوماً وننساكا
إن الظلام الذى يجلوك يا قمرٌ  له صباح متى تدركه أخفاكا

* * *

ويتحدث فى الفصل الثالث عن السجين تحمله عربة السجناء إلى قضائه ، وزوجته التى تحبه تشيعه بنظراتها الجازعة ؛ فتعرف من وصفه لساعة الفراق بين الزوجين الحبيبين ، أى خاطرة فى الحب ألهمته هذا الفصل البديع ، وكأنك تسمع الرافعى يتحدث فيه عن نفسه مما فعل به الفراق : « ما الفراق إلا أن تشعر الأرواح المفارقة أجسامَها بمسّ الفناء لأن أرواحاً أخرى فارقتها ؛ ففى الموت يُمسّ وجودنا ليتحطم ، وفى الفراق يمس ليلتوى ؛ وكأن الذى يقبض الروح فى كفه حين موتها ، هو الذى يلمسها عند الفراق بأطراف أصابعه !

« وإنما الحبيب وجود حبيبه لأن فيه عواطفه ؛ فعند الفراق تنزع قطعة من وجودنا فنرجع باكين ونجلس فى كل مكان محزونين كأن فى القلوب معنى من المناحة على معنى من الموت ...

« ترى العمر يتسلسل يوماً فيوماً ولا نشعر به ، ولكن متى فارقنا من نحبهم نبه القلب فينا بغتة معنى الزمن الراحل ، فكان من الفراق على نفوسنا انفجار كتطاير عدة سنين من الحياة ... » .

ويتحدث فى الفصلين الرابع والخامس عن تجارة الحب[1] ، وعن المنافق ، فتلمح من وراء حديثه معنى لا يريد أن يفصح عنه ، وأنه لبسبب مما كان بينه وبين صاحبته ؛ أفتراه يشير به إلى شىء من أسباب القطيعة ؟

وفى الفصل السادس يتحدث عن حب الأم فى قصة والدة ضل ولداها الصغيران ثم اهتدت إليهما :

« الحب ! ما الحب إلا لهفة تهدر هديرها فى الدم ، وما خلقت لهفة الحب أول ما خلقت إلا فى قلب الأم على طفلها ... حب الأم فى التسمية كالشجرة : تغرس من عود ضعيف ، ثم لا تزال بها الفصول وآثارها ولا تزال تتمكن بجذورها وتمتد بفروعها حتى تكتمل شجرة بعد أن تفنى عداد أوراقها ليالىَ وأياماً . وحب العاشقين كالثمرة : ما أسرع ما تنبت ، وما أسرع ما تنضج ، وما أسرع ما تقطف ، ولكنها تُنسى الشفاهَ التى تذوقها ذلك التاريخَ الطويل من عمل الأرض والشمس والماء فى الشجرة القائمة ...

« ... لا لذة فى الشجرة ولكنها مع ذلك هى الباقية وهى المنتجة ، ولا بقاء للثمرة ولكنها على ذلك هى الحلوة وهى اللذيذة وهى المنفردة باسمها ...

---

(١) هذا الفصل فى السحاب الأحمر بعنوان « الربيطة » كتبه الرافعى عن صديق من خريجى جامعات أوربا ، هو الدكتور الهراوى ، وكان فى صدر شبابه — كأكثر واردات أوربا — زيفا فى الدين ، وزيفا فى الخلق ، وزيفا فى الرجولة ؛ على أنه الآن من أكثر المسلمين حمية لدينه وحفاظاً على تراث قومه ؛ وله مقالات فى الاسلام وفى الرد على بعض جهلة المستشرقين تشفع له يوم الدين

« وهكذا الرجل أغواه الشيطان فى السماء بثمرة فنسى الله حيناً ، ويغويه الحب فى الأرض بثمرة أخرى فينسى معها الأم أحياناً ! »

* * *

وتراه فى الفصول الثلاثة الباقية كأنما يحاول أن يروض نفسه على السلوان ، ويقنعها بأن الحب ليس هو رجولة الرجل ، وليس هو إنسانية الإنسان ، وليس هو كل ما فى الحياة من لذة ومتاع ، فى كلام يجريه على ألسنة شيوخه وأصدقائه : الشيخ على ، والشيخ أحمد ، والشيخ محمد عبده ؛ يحاورهم ويحاورونه ، فتستمتع فى هذا الحوار إلى النجوى بينه وبين نفسه ، وإلى الصراع بين عقله وهواه .

إن الرافعى بكبريائه وخلقه ودينه واعتداده بنفسه ، لم يُخلق للحب ! ولكنه أحب ، فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام ، وصراعاً دائماً بين طبيعته التى هو بها هو ، وفطرته التى هو بها إنسان . وإنك لتلمح هذا الصراع الدائم فى كل فصل من فصول السحاب الأحمر

* * *

وفى كتاب السحاب الأحمر ، تقرأ رأى الرافعى فى القضاء والقدر ، وإنه ليشمرك برأيه ذلك مقدار ما فعل به الحب وما فلّ من إرادته . فتراه يؤمن بأن الإنسان فى دنياه ليس له كسبٌ ولا اختيار فيما يعمل ، ولكنه قضاء مقدور عليه ، منذ الأزل لا طاقة له على الفكاك منه . وإنه على ذلك لموقن بأن لله حكمة فيما قضى وقدر ، وإن دقت حكمته على الأفهام :

« ألا يا ماء البحر ، ما أنت على أرض من الملح ؛ فبماذا أصبحت زُعاقاً لا تحلو ولا تُساغ ولا تُشرب ؟ إنك لستَ على أرض من الملح ولكنك يا ماء البحر ذابت فيك الحكمة المِلْحة ... ! »

* * *

قلت فى الفصل السابق : إن رسائل الأحزان عند أكثر قراء العربية هو شىء من البيان المصنوع تكلّفه كاتبه ليحاول به أن يستحدث فنّا فى العربية لم يوفق

إلى تجويده ... لأنه بقية قصة لم تنشر معه ... ...

أما السحاب الأحمر فهو كتاب كامل . احذف منه فصلاً أو فصلين فى أوله ، وشيئاً من فضول القول فى سائره ، تجد فناً فى العربية لا يقدر عليه إلا الرافعى ، فجرِّدْهُ من قصته أو انسبه إليها، فإنك واجد فيه أدباً يستحق الخلود، وبياناً يزهى على البيان ، وشعراً وحكمة ما زال الأدباء يدورون عليها حتى وجدوها فى أدب الرافعى

* * *

فى رسائل الأحزان أراد الرافعى أن تعرف صاحبته من حاله ومن خبره ما أراد ، فأغراها بالترفع والدلال عليه ؛ وفى السحاب الأحمر حاول أن يشعرها أنه قد فرغ من أمرها وفرغت من أمره فما لها عنده إلا البغض والإهمال ، وما له عندها إلا اللهفة على ما كان من أيامه . أفتراه فى السحاب الأحمر قد بلغ ما أراد ؟

هيهات أن يخفى الهوى !

استمع إليه يحاول أن يهيج فيها الغيرة ويبعث اللهفة ويوقظ الحنين ويؤرّث البغضاء ويثير الندم ؛ فلا يكاد يبلغ آخر الرسالة حتى ينسى ما قصد إليه ليدع لقلبه أن يقول :

ويلى على متـــدلِّـل ما تنقضى عنى فنونهْ
كيف السُّلُوُّ وفى فؤا دى لا تفارقنى عيونهْ ؟ !

يرحمك الله يا صديق !

# أوراق الورد

« ... إنه ليس معى إلا ظلالها ، ولكنها ظلال حية تروح وتجيء فى ذاكرتى . وكل ما كان ومضى هو فى هذه الظلال الحية كائن لا يفنى . وكما يرى الشاعر الملهم كلام الطبيعة بأسره مترجما إلى لغة عينيه ، أصبحت أراها فى هجرها طبيعة حسن فاتن مترجمة بجملتها إلى لغة فكرى

« كان لها فى نفسى مظهر الجمال ومعه حماقة الرجاء وجنونه ، ثم خضوعى لها خضوعا لا ينفعنى ... فبدلنى الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله ، ثم خضوعها لخيالى خضوعا لا يضرها ...

« وما أريد من الحب إلا الفن ، فان جاء من الهجر فن فهو الحب ...

« كلما ابتعدت فى صدها خطوتين رجع إلى صوابى خطوة

« لقد أصبحت أرى ألين العطف فى أقسى الهجر ، ولن أرضى بالأمر الذى ليس بالرضا ، ولن يحسن عندى مالا يحسن ، ولن أطلب الحب إلا فى عصيان الحب . أريدها غضبى ، فهذا جمال يلائم طبيعتى الشديدة ، وحب يناسب كبريائى . ودع جرحى يترشش دما ، فهذه لعمرى قوة الجسم الذى ينبت ثمر العضل وشوك المخلب ، وما هى بقوة فيك إن لم تقو أول شىء على الألم . . .

« أريدها لا تعرفنى ولا أعرفها ، لا من شىء إلا لأنها تعرفنى وأعرفها ... تتكلم ساكتة وأرد عليها بسكوتى . صمت ضائع كالعبث ولكن له فى القلبين محل كلام طويل ... »

( الرافعى )

هدأت ثائرة الرافعى هوناً ما ، وفاءت إليه نفسه ، واعتدلت مقادير الأشياء فى عينيه ، وعاد إلى حالة بين الرضا والغضب ، وبين الحب والسلوان ؛ فاستراح إلى اليأس ... لولا أثارة من الحنين تنزع به إلى الماضى ، وبقية من الشوق واللهفة على ما كان ؛ وفرغت أيامه من الحادثة لتمتلىء من بعدُ بالشعر والحكمة والبيان

ومضت سبع سنين والحياة تذهب به مذاهبها ، والذكرى تغشاه فى خلوته وتداعبه فى أحلامه ، والأمانىّ التى بعثرتها الكبرياء بَدَداً فى أودية النسيان تتخايل له فى شكول وألوان ، وخواطره من وراء ذلك تعمل ، ونفسه الشاعرة

تحس وتشعر وتنفعل بما يتعاقب عليها من الرُّؤى والأحلام . وأتم نظم قصيدته البارعة فى « أوراق الورد » سنة ١٩٣١

أوراق الورد هو طائفة من الخواطر المنثورة فى فلسفة الحب والجمال ، أنشأه الرافعى ليصف حالة من حالاته ، ويثبت تاريخاً من تاريخه ، فى فترة من العمر لم يكن يرى لنفسه من قبلها تاريخاً ولا من بعد

ويقول الرافعى إنه جمع فى أوراق الورد رسائلها ورسائله . أما رسائله فنعم ولكن على باب من المجاز ، وأما رسائلها فما أدرى أين موضعها من الكتاب ، إلا رسالة واحدة وجُزازات من كتب ونتفاً من حديثها وحديثه

بلى ، إن فى أوراق الورد طائفة من رسائله إليها ، ولكنها رسائل لم تذهب إليها مع البريد ، بل هى من الرسائل التى كان يناجيها بها فى خلوته ، ويتحدث بها إلى نفسه ؛ أو يبعث بها إلى خيالها فى غفوة المنى ، ويترسَّل بها إلى طيفها فى جلوة الأحلام، إلا رسالتين أو ثلاثاً مما فى أوراق الورد ... فلما أتم تأليفها وعقد عقدتها ، بعث بها إليها فى كتاب مطبوع بعد سبع سنين من تاريخ الفراق !

* * *

ولكن أوراق الورد ليس كله من وحى ( فلانة ) ، وليست كل رسائله فى الكتاب إليها ؛ فهنالك الأخرى ، هنالك صاحبة ( حديث القمر ) ، تلك التى عرفها فى ربوة من لبنان منذ تسع عشرة سنة ، وهنا فلانة ...

هما اثنتان لا واحدة : تلك يستمدّ من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة ، معانىَ الحب التى تملأ النفس بأفراح الحياة، وهذه يستوحيها معانى الكبرياء والصد والقطيعة وذكريات الحب الذى أشرق فى خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالألم !

لقد مضت سبع سنين منذ فارق صاحبته (فلانة)، كان قلبه فى أثنائها خالصاً لها، ولكن فكره كان يدور على معانى الشعر يلتمسه من هنا ومن هناك ؛ فلما اجتمع له ما أراد ، ضم أوراق الورد إلى أشواكه ، وأخرجها كتاباً للفن أولاً ثم لها من بعد .

هو كتاب ليس كله من نبضات قلبه الذى يعشقها وما زال متيّما فى هواها ، ولـكن فيه إلى جانب ذلك فكر المفكّر وعقل الأديب وحيلة الفنان

بلى ، إنه كان يحبها حباً لا يتسع القلب لأن يشرك فيه غيرها فكان ( قلبه ) لها من دون النساء جميعاً ، ولـكن الذكريات كانت تتوزع ( فكره ) فتوحى إليه من هنا ومن هنالك ومما يستجد على خواطره من بعد فى معانى الحب والبغض والود والقطيعة

هو كتاب يصور نفسه وخواطره فى الحب ؛ ثم يصوِّر فنه وبيانه فى لغة الحب ؛ ثم ... ثم لا يصور شيئاً من بعد مما كان بينه وبين صاحبته على وجهه وحقيقته ، إلا أن يتدبر قارئه ويستأنى ليستخلص معنى من معنى على صبر ومعاناة فى البحث والاستقراء

فما رأيتَ من رسالة فيها اللهفة والحنين ، وفيها التذلّل والاستعطاف ، وفيها تصنُّع الغضب ودعوى الكبرياء ، وفيها المنى الحالمة تتواثب بين السطور فى خفة الفراشة الطائرة ؛ وما رأيت من معنى تحاول أن تمسكه فيفلت ؛ فهو فصل يؤدى أداءه فى قصة هذا الحب العجيب

وما قرأتَ من رسالة تصف ما كان فى خلوة نفس إلى نفس ، وتقص عليك فى لغة الماضى حديث قلب إلى قلب ، وتكشف لك عن سر الابتسامة ومعنى النظرة ، وتتحدث إليك عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون ؛ فهو ذكرى من الماضى البعيد ، كان حباً فى القلب فصار حديثاً فى الفكر ، ثم استتبع شيء شيئاً

وما قرأتَ من قول مزوَّق ، وبيان منمَّق ، ومعنى يلد معنى ، وفكرة تستجرّ فكرة ، وعبارة تتوكأ على عبارة ؛ فهو من أداء الفن وولادة الفكر

ولقد تجد رسالة كلها حنين ولهفة ، أو حادثة وذكرى ، أو فنٌّ من الفن ؛ ولقد تجد كذلك رسالة غيرها تجمع هذه الثلاثة فى قَرَن : ففيها قلب ينبض ، وذكرى تعود ، وبيان مصنوع

فإذا أنت عرفت هـذه الثلاثة ، عرفت الـكتاب ، وعرفت صاحبه ، وخرجت منه بشيء

* * *

يبدأ أوراق الورد بمقدمة بليغة فى الأدب يتحدث فيها عن تاريخ رسائل الحب فى العربية بأسلوب هو أسلوب الرافعى ، وإحاطة هى إحاطته ، وسعة اطلاع لا تعرفها لغيره ؛ وهذه المقدمة وحدها هى باب فى الأدب العربى لم ينسج على منواله ولم يكتب مثله ، تذكّر قارئها ذلك النهج البارع الذى نهجه الرافعى العالم المؤرخ فى كتابه « تاريخ آداب العرب » فكان به أول من كتب فى تاريخ الأدب وآخر من كتب...

وتأتى بعد هذا الفصل مقدمة الرسائل ، وفيها سبب تسمية الـكتاب ، وهو شىء مما كان بينه وبين صاحبته . يقول إنه كان فى مجلسها يوماً ومعها وردة ؛ فأخذت تحدثه عن الحب وعمر الحب ، وعن الورد وعمر الورد ، وكأنها تقول له : احذر أن تجعل حظك من الوردة أكثر من أن تستنشيها على بُعد من دون لمسة البنان ، واحذر فى الحب ... قال : « ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها إلى عروة صاحبها ، فقال لها : وضعتِها رقيقة نادية فى صدرى ، ولـكن على معان فى القلب كأشواكها ... فاستضحكت وقالت : فإذا كتبت يوماً معانى الأشواك فسمِّها أوراق الورد ... وكذلك سماها »

ويمضى فى هذه المقدمة يتحدث عن حبه ، وآلامه فى الحب، ورأيه فى الحب، وشىء مما كان بينه وبينها ؛ ثم يتحدث عن نهجه فى هذه الرسائل ، وما أراد بها ، وما أوحاها إليه ؛ فى أسلوب كله حنين ، وكله شوق وألم .

ثم تأتى بعد ذلك فصول الـكتاب متتابعة على ما أوضحت طريقها من قبل : فيها حنين العاشق المهجور ، وفيها مُنية المتمنى ، وفيها ذكريات السالى ، وفيها فن الأديب وشعر الشاعر ؛ وفيها من رسائلها ومن حديثها ...

* * *

من أراد أوراق الورد على أنه قصـة حب فى رسائل لم يجد شيئاً ، ومن أراده

رسائل وجوابها فى معنى خاص لم يجد شيئاً ؛ ومن أراده تسلية وإزجاء للفراغ لم يجد شيئاً ؛ ومن أراده نموذجاً من الرسائل يحتذيه فى رسائله إلى من يحب لم يجد شيئاً ؛ ومن أراده قصة قلب ينبض بمعانيه على حاليه فى الرضى والغضب ، ويتحدث بأمانيه على حاليه فى الحب والسلوان — وجد كل شىء .

وهو فى الفن فنٌّ وحده ، لا تجد فى بيانه ومعانيه ضريباً له مما أنشأ الكتاب وأنشد الشعراء فى معانى الحب ؛ على أنه بأسلوبه العنيف وبيانه العالى وفكرته السامية فى الحب ، لا يَعرف قراءه فى العربية . وكم قارىء استهواه عنوان الكتاب وموضوعه فتناوله بشوق ولهفة ، فما هو إلا أن يمضى فيه إلى صفحات قليلة حتى تُسلمه يمناه إلى يسراه إلى الزاوية المهملة من مكتبته ، ثم لا يعود إليه ... وكم قارىء كان لا يعرف الرافعى الشاعر الثائر العنيف فى حبه وبغضه وكبريائه ، فلما قرأ أوراق الورد عرفه فأحبه فاستخلصه لنفسه فما يعرفه فى الأدباء إلا أنه مؤلف أوراق الورد .

وكم وكم ... ولكن أوراق الورد ما يزال مجهولاً عند أكثر قراء العربية وإن كان فى مكتباتهم ، لأن القارئ الذى يلذه أوراق الورد ما زال يتعلم فى المدرسة كيف يقرأ ليستفيد ويضمّ فكراً إلى فكره لا ليتسلى ويهرب من فكره ! لأن العربية ليس لها قراء ... !

ليت شعرى أفى العربية كلها شاعر يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من أوراق الورد أو يجمع معانيها فى قصيدة ؟ ابحثوا عن جمهور هذا الشاعر وقرائه يوم تسمعون قصيده ...

أرأيت إلى المنجم الذى يمتد فى الأرض ويتغلغل بعروق الذهب ؟ إنه كنز ، ولكن مَنْذا يصبر على المعاناة فى استخراجه والبلوغ إليه إلا أن يكون صاحب أيدٍ وقوة ؟ إنه كنز يطلبه الجميع ولكنك لن تجد فى الجميع من يقدر على استخلاصه من بين الصخور المتراكبة عليه وحواليه من طبقات الأرض إلا الرجلَ الواحد المحظوظ الذى يكون معه الصبر .

إن أوراق الورد مَنْجم من المعانى الذهبية ، لو عرفه المتأدبون من شباننا لوضعوا يدهم على أثمن كنز فى العربية فى معانى الحب والجمال يكون لهم غذاء ومادة فى الشعر والبيان .

وكان الرافعى — رحمه الله — يعتز بأوراق الورد اعتزازه بأنفس ما أنتج فى أدب الإنشاء ، ويباهى ويفتخر ؛ وما أحسبه تعزَّى عن صاحبته بقليل إذ تعزَّى بما لقى من النجاح والتوفيق فى إنشاء أوراق الورد ؛ وكما تجد الأم سلوتها فى ولدها العزيز عن الزوج الحبيب الذى طواه الموت ، وجد الرافعى العزاء فى أطفال معانيه عن مطلَّقته العنيدة ... لقد فارقها ولكنه احتواها فى كتاب !

إن الأم لا تنسى زوجها الحبيب إذا فارقها وخلَّف بين يديها بضعة منه ، ولكنها تجد العزاء عنه بشىء منه وإن قلبها ليخفق بذكراه فى عينى هذا الحبيب الصغير . وكذلك لم ينس الرافعى ولكنه وجد السلوان ... لقد أفلتتْ من يده ولكنها خلفتْ ذكراها معه ، ذكرى حيةً ناطقة تتمثل معانىَ وكلماتٍ فى كتاب يقرؤه كلما لج به الحنين فكأنه منها بمسمع ومشهد قريب !

يرحمه الله ! لقد مات ولكن قلبه ما يزال حياً ينبض يتحدث عن آلامه وأشواقه فى قلب كل محب يقرأ كتابه فيجد فيه صورة من قلبه وعواطفه وآماله... يرحمه الله !